كلاسيكيات أثر Athar Classics

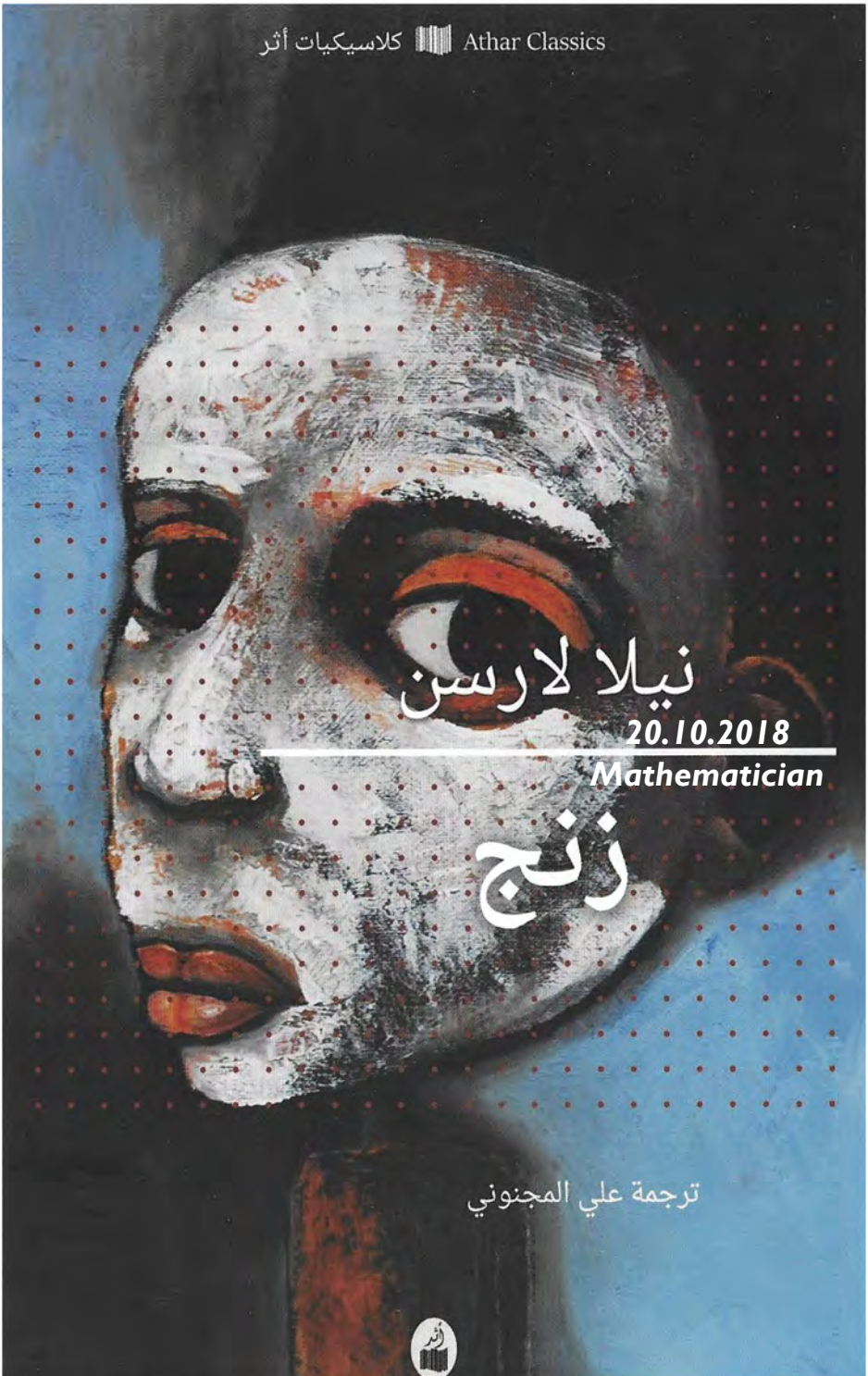

نيلا لارسن

20.10.2018

Mathematician

زنج

ترجمة علي المجنوني

زنج

نيلا لارسن
زنج

الطبعة الأولى
2016 /1437
ردمك: 978-9938-88046-5

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الأنجليزي The Passing حقوق الترجمة مرخصة بها قانونيا من: Martino Edition بمقتضى الاتفاق الموقع بينه وبين دار أثر للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية- الدمام
تلفون : 00966505774560
الموقع الالكتروني : www.darathar.net
Email: info@darathar.net

يُمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية.. بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى.. بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

نيلا لارسن

زنج

رواية

ترجمة
علي المجنوني

مراجعة
نوف الميموني

مقدمة المترجم

عوضًا عن أن أحبسك —عزيزي القارئ— طويلا قبل أن تجد نفسك أمام الرواية التي أنت على وشك قراءتها، حسبي أن أقدم لمحة موجزة وخاطفة للسياق الثقافي والاجتماعي الذي نُشرت فيه الرواية وعاشت فيه كاتبتها، والتي أخال تقديمها أمرا ما منه بدّ.

ولدت نيلا لارسن في شيكاغو عام ١٨٩١م لأب أسود من إحدى جزر الهند الغربية وأم دانماركية. ترك أبوها العائلة وهي في السنة الثانية فتزوجت أمها من آخرَ حملت نيلا اسمه فيما بعد. عايشت في طفولتها، بصفتها الفرد الوحيد ببشرة داكنة في عائلتها البيضاء، التمييز العنصري الذي يقسم أحياء شيكاغو التي كانت قد بدأت تستقبل السود الفارّين من جحيم الرق في الجنوب الأمريكي. أرسلتها أمها لدراسة التمريض في جامعة فيسك بولاية تينيسي، الجامعة التي ربما كانت الوحيدة التي تستقبل الطلاب السود في ذلك الوقت. عملت لارسن بعد تخرجها ممرضة في نيويورك وتزوجت من إيلمر إيميس. وفي عشرينات القرن العشرين انخرطت بفعالية في نهضة هارلم الحيوية حتى أمست اسما مهما من أسماء الحركة وأبرز أصواتها النسائية على رغم إقلالها في الكتابة. ساهمت حادثتان في إحباط لارسن وانسحابها من وسط هارلم الثقافي والأهم توقفها عن الكتابة، وهما اتهامها بالسرقة الأدبية في قصة قصيرة كتبتها، ورفض ناشرها نشر رواية ثالثة أتمّتها بعد حصولها على منحة غوغنهايم كأول امرأة من أصل إفريقي تحصل عليها. عقب طلاقها من زوجها في عام ١٩٣٣م اختفت تدريجيا ولم يُعرف عنها شيء حتى ماتت

في عام ١٩٦٤م بعد سنة من رفض أختها البيضاء المقيمة في كاليفورنيا استقبالها. كتبت لارسن روايتين تناولت فيهما تعقيدات الهوية العرقية، أصدرت أولاهما في عام ١٩٢٨م بعنوان «رمل منهار» ثم أتبعتها بعد عام بهذه الرواية التي نُشرت بعنوان يمكن ترجمته إلى «عبور» أو «عابرة.» أما «زنج»، العنوان الذي اصطفيته لترجمتي، فهو ما أرادت لارسن أن تسم روايتها به، غير أن ناشرها ألفرِد نوبف رفضه.

معلومٌ أن إرثَ الاسترقاق في الغرب عموما والولايات المتحدة الأمريكية خصوصا قد رفد المشهد الثقافي بمظاهر معقدة وغنية في الآن نفسه، جاءت انعكاسا لتجليات هذا الملمح الوحشي من ملامح التاريخ البشري. ففي الجانب الأدبي مثلا ظهرت سرديات الأسر، ثم سرديات الرق —أو سرديات الحرية كما يحلو للبعض توصيفها— ثم سرديات العبور. وبالأخيرة أعني السرديات التي جعلت من العبور العرقي موضوعا رئيسا لها، والتي ازدهرت في أمريكا ما بعد الحرب الأهلية وإعادة الإعمار، وبشكل خاص خلال نهضة هارلم، بسبب تأكيد مثقفي هارلم على الاعتزاز والتضامن العِرقيين. ورواية «زنج» خير مثال على هذا النوع من الأدب، إذ يشير العنوان الذي صدرت به الرواية إلى العبور العِرقي، وهو في أبسط صوره ادعّاءُ فردٍ من عِرقٍ ما انتماءَه إلى عرق آخر أوفر حظا وأحرى أن يتمتع المنتمون إليه بمزايا سياسية واقتصادية واجتماعية يسعون إلى احتكارها دون غيرهم. والعبور بمعناه الواسع سلوك إنساني غائرٌ في التاريخ البشري، مما قد يجعل تقصّيه شأنا مستحيلا هنا، إلا أن السياق الأمريكي على وجه التحديد قدم حالة صارخة ومعقدة يعني العبورُ فيها، غالبا، عبورَ أفراد من أصول إفريقية على أنهم بِيض.

منذ وقت مبكر، أدى تزاوج المستعمرين الأوربيين مع السكان الأصليين للقارتين الأمريكيتين وسكان جزر المحيط الأطلسي والأفارقة

الذين جُلبوا عبيدا إلى اختلاط الأعراق والألوان، فكان أن ظهرت في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر دعواتٌ لصَوْنِ العرق الأبيض من هذا الاختلاط، مدفوعة في مطالباتها بمجموعة نظريات عُرفت فيما بعد بالداروينية الاجتماعية، تمنح العرق الأبيض تفوقا جوهرانيا وغير مشروط على باقي الأعراق. هربا مما ترتب على تلك الدعوات من عنصرية وتمييز وعنف، وطمعا في حياة أفضل بعيدا عن البؤس الذي ينقع فيه السود الذين وإن انعتقوا من ربقة الاستعباد لاحقا لم ينعتقوا من توابعه، عمد بعض أبناء وأحفاد الزيجات المختلطة، متستّرين بلون البشرة الفاتح الذي يميز مظاهرهم، إلى إخفاء هوياتهم الحقيقية وتبنّي هوية جديدة ما كان لهم أن يتبنّوها لو احتُكم إلى عِرقهم في ضوء المعايير الاجتماعية السائدة والتي تحكمها معايير بيولوجية متعنّتة. فعلى سبيل المثال، يحتّم قانون «قطرة الدم الواحدة» الذي شاع في القرن التاسع عشر اعتبارَ الفردِ أسودَ أو «زنجيا» لمجرد أن يكون في أسلافه واحد إفريقي، حتى وإن وُلد ببشرة بيضاء وشعر أشقر وعينين زرقاوين.

تاريخ العبور عبارة عن تاريخ فَقْدٍ عظيم، تاريخ هويات مختلطة ومشوشة، تاريخ معاناة يومية، تاريخ اقتلاع من الجذور وصراع بقاء في العراء. ونظرا لطبيعته السرية، فلا حصر دقيقا لحالات العبور العرقي في فترة من الفترات، إلا أن نقادا ومؤرخين عدة اتفقوا على أن آلافا من السود عبروا الضفة الأخرى من الفاصل اللوني بشكل سنوي. طالما اقتضى العبور بطبيعة الحال انتقالَ الفرد العابر إلى منطقة بعيدة عن مدينته التي نشأ فيها وبدْءَ حياة جديدة بهويّة مزورة. والعبور لا يقتصر على تبنّي هوية مغايرة بصفة دائمة، ولكن يُطلق أيضا للتعبير عن حالاتِ تبنّي أدوار مؤقتة تحت ظروف معينة، كمثل العبور من أجل التبضع أو تناول الطعام أو حتى النوم في مؤسسات تستبعد السود من تقديم خدماتهم لها. في كلا الحالتين، العبور تظاهرٌ، إخفاءٌ لخلفية معينة،

تنكّرٌ لها وتنصّلٌ منها، سلوك بارع ومجازف في آن. والعابر، على رغم كل شيء، فردٌ واعٍ بالقيم الاجتماعية التي أملتها رؤية الطبقة المهيمنة، ويخادعها، إما بالسّكوت عن حقيقته حين يُخطأ في افتراض أصله أو بتبنّي هوية الأغلبية من تلقاء نفسه هربا من العبودية والعنصرية والفقر.

لقد أتاح لون البشرة الفاتح إذن للفرد العابر فرصة استثنائية للتحايل على التعريف الاجتماعي للعرق، من خلال تقديم نفسه على أنه أبيض. كما قدم العبور العرقي حالة معقدة من حالات الهوية في القرنين التاسع عشر والعشرين، ولم يتلاشَ كممارسة اجتماعية إلا بظهور الحركات المروّجة للتعددية الثقافية التي تصرّ على الاعتراف بحقوق الأفراد بمعزل عن عرقياتهم أو طبقاتهم الاجتماعية أو خلفياتهم الثقافية. حتى إن حقولا معرفية أخرى، كمثل سياسات الهوية الجنسية، استفادت من العبور باعتباره سلوكا يتحدى الأعراف الراسخة بمكر وحساسية ويوفر فرصة ذكية لتقويض البناء الاجتماعي للتصنيف الصارم للهويات. لقد وُجدت في العبور فرصة مواتية للبرهنة على أن الهوية مرهونة في الغالب بالبناء الاجتماعي لمجموعة من التصنيفات اعتباطية من جهة وجوهرانية من جهة أخرى. وفي حالة التمييز العنصري، برهن العبور العرقي على أن اللون وحده محددٌ رئيس لهوية تبيّن أنها ضحلةٌ ضحالة لون البشرة. وهكذا يشكّل نجاح الأفراد العابرين عرقيا واستيعاب المجتمع الأبيض لهم هزءا بهشاشةِ القيم التي ينبني عليها المجتمعُ وسطحيتِها باعتمادها المحض على لون البشرة في تقرير مصائر الأفراد والمجتمعات. كما يبطل مزاعم الداورينية الاجتماعية بأن الأسود عاجز بالفطرة عن القيام بما يدعى «شغل الرجل الأبيض» مشكّلا إحراجا لكل المزاعم التي تبرر الاسترقاق وتستمرئه.

وفر العبورُ العرقي زاوية نقدية غير مسبوقة فسحت المجال للدراسات النقدية وللخطاب الجمعي لتداول السلوك في تحدّيه للبنى

الصارمة لسياسات الهوية والتي أفضت إلى العزل والتمييز العنصريين وجرائم الكراهية. زد على ذلك أنه مهد لحراك ثقافي وسياسي ناجع، بدأته حركة الحقوق المدنية، من أجل انتزاع الاعتراف القانوني الكامل بمواطنتهم. كما أبرز الطبيعة التفاوضية للهوية، حيث لا يولد الفرد بهوية معينة قارّة، ولكنه يؤديها أداءً. ولهذه الأسباب لا ينفكّ يرفد المخيلة الإبداعية لدى الكتّاب عامة والكتّاب السود خاصة. ولعل أقدم النماذج لسرديات العبور العِرقي كتاب «الهرب ألف ميل في سبيل الحرية» الذي صدر عام ١٨٦٠م وسردت فيه إلين كرافت قصة هربها من جورجيا إلى پنسلڤينيا شمالا عام ١٨٤٨م، في رحلةِ فرارٍ من الاسترقاق شاقةٍ ومحفوفة بالمخاطر، يصحبها زوجها الأسود، ادّعت كرافت فيها أنها رجل أبيض، معتمدة على لون بشرتها، فهي ابنة رجلٍ أبيض وخادمتِه، وأن زوجها الأسود إنما هو خادمها. انفرط بعد ذلك عقد الأعمال الروائية التي تناولت الموضوع، ومن أبرزها ما كتبه تشارلز تشستنت في رواية «البيت الواقع خلف شجر الأرز» عام ١٩٠٠م، وجيمس ولدن جونسون في رواية «السيرة الذاتية لملوَّن سابق» عام ١٩١٢م، ووولتر وايت في رواية «ارتحال» عام ١٩٢٦م، وجورج سكايلر في رواية «لم أعد أسود» عام ١٩٣١م، وغيرهم، حتى إن من أحدث ما كُتب في هذا الشأن رواية «قوقاز» التي صدرت عام ١٩٩٨م لدانزي سنا.

علي المجنوني

٥ يونيو ٢٠١٥م

إلى كارل ڤان ڤتشتن وفانيا مارينوف

ماذا تعني أفريقيا لي:

شمس نحاسية أم بحر قرمزي،

نجمة الغاب أم مسار الغاب،

رجال ملوحون أقوياء، أم نساء ملكيات

نبعتُ من أرحامهن

عندما غنت طيورُ عدن؟

امرؤ على بُعد ثلاثة قرون

من المناظر التي أحبها آباؤه،

أيكةُ توابل، شجرةُ قِرفة،

ماذا تعني أفريقيا لي؟

كاونتي كالن (١٩٠٣-١٩٤٦م)

الجزء الأول:
المواجهة

١

كانت الرسالةَ الأخيرةَ في كومة آيرين ردفيلد الصغيرة من البريد الصباحي. بعد رسائلها الأخرى العادية والمعنونة بوضوح، بدا الظرف الطويل من الورق الإيطالي الرفيع، بخطه الذي يكاد يكون مستغلقًا، دخيلاً على المكان وغريبًا. كما كان هناك أيضا شيء بالنسبة له مُلغز ومُثير للريبة. شيء صغير وماكر لم يحمل عنوانًا يمكن أن يُستدل به على مرسله. ليس لأنها لم تعرف على الفور من كان المرسل، فقبل حوالي سنتين استقبلت ظرفًا يشبهه كثيرًا في مظهره الخارجي. مُريبًا غير أنه بطريقة خاصة ومحددة كان مُزدهيًا بعض الشيء. حبر أرجواني. ورق أجنبي بمقاس استثنائي.

لاحظت آيرين أن الظرف قد خُتم في نيويورك اليومَ السابق. اتصل حاجباها في تقطيبة صغيرة. نشأت التقطيبة عن ارتباك أكثر مما نشأت عن انزعاج؛ على رغم أنه كان في أفكارها شيءٌ من كليهما. لم تكن قادرة تمامًا على استيعاب مثل هذا الشعور تجاه الخطر الذي تأكد لها أن محتوى الرسالة سيكشفه، فكرهت فكرةَ أن تفتحها وتقرأها.

كان هذا، حين أمعنت النظر في الأمر، جزءًا من التفكير في كل ما تعرفه عن كلير كندري. واطئةً حافة الخطر دائمًا. واعيةً دائمًا، دون أن تتراجع أو تحيد. بالتأكيد لن يدفعها لذلك أيةُ إنذارات أو شعور بالغضب من جانب الآخرين.

ولوهلة خاطفة بدت آيرين ردفيلد قادرة على رؤية فتاة صغيرة شاحبة تجلس على أريكة زرقاء رثة، تخيط خِرَقًا من القماش الأحمر القاني، بينما أبوها السكير، الرجل الطويل قوي البنية، يرغي ويزبد مهددًا ذارعًا الغرفة المتواضعة ذهابًا وجيئة، مطلقًا تجاه البنت لعناته واندفاعاته التشنجية التي لم تكن على رغم ذلك مُخيفة لأنها تعوزها الفعالية والجدوى في الغالب. ينجح أحيانًا في الوصول إليها. لكن وحدها حقيقةُ أن الطفلة حشرت نفسها وخياطتها المتواضعة في أقصى ركن في الأريكة تدل على أن هذا التهديد يقلقها وشغلَها.

عرفت كلير تمام المعرفة أن من غير الآمن أن تأخذ قِسما من الدولار الذي كان أجرها الأسبوعي مقابل القيام بمهام كثيرة لصالح الخياط الذي كان يقطن الطابق العلوي للبناية التي عمل بوب كندري بوابًا لها. بيد أن تلك المعرفة لم تثنِها. أرادت أن تذهب في نزهتها المدرسية يوم الأحد، وعقدت العزم على أن ترتدي فستانًا جديدًا. وهكذا، على رغم البغض المؤكد والخطر المحتمل، أخذت النقود من أجل شراء لوازم الفستان الأحمر الصغير المثير للشفقة.

لم يكن في تصور كلير كندري عن الحياة، حتى في تلك الأيام، ما يستحق التضحية. كانت أنانية وباردة وصعبة المراس. ومع ذلك كانت تتمتع أيضًا بمقدرة غريبة على تحويل الدفء والشغف لصالحها، مقتربة أحيانًا من بطولات مسرحية.

تذكرت آيرين، التي كانت تكبر كلير بسنة أو تزيد، اليوم الذي أُحضر فيه بوب كندري إلى بيته ميتًا، بعد أن قُتل في مشاجرة سخيفة في حانة. رؤيتها وقفت كلير، التي كادت أن تبلغ الخامسة عشرة، ضاغطة شفتيها، وطاوية ذراعيها الرفيعتين فوق صدرها الهزيل، ومحدقة إلى الأسفل صوب وجه والدها المألوف ببياضه العجيني، بشيء من الازدراء في عينيها السوداوين المائلتين. ظلت واقفة هكذا لمدة طويلة جدًا، صامتة ومحدقة. ثم سمحت بغتة لتيار جارف من النحيب أن ينطلق. يتمايل جسدها النحيل، وتشد شعرها الزاهي، وتضرب بقدميها الصغيرتين. توقفت نوبة البكاء فجأة كما بدأت بها فجأة. نقّلت بصرها سريعًا في أرجاء الغرفة العارية التي استوعبت الجميع بما فيهم الشرطيَّيْن، حادجة إياهم بنظرة حادة ملؤها احتقان خاطف. ثم، في اللحظة التالية، استدارت واختفت عبر الباب.

أخذ هذا الشيء، حين فكرت فيه آيرين عبر الامتداد الطويل للسنين، مظهرَ تدفقِ غضب مكبوت أكثر منه فيضانًا للحزن على أبيها الميت، على رغم أنها كانت، باعتراف آيرين، مولعة به بما يكفي بطريقتها القِطّية الخاصة.

القِطّية. كانت تلك الكلمة بالطبع أفضل وصف لكلير كندري، لو كان بإمكان أي كلمة مفردة وصفها. أحيانًا كانت صعبة المراس بوضوح ومن دون مشاعر إطلاقًا، وأحيانًا كانت رقيقة الجانب وتلقائية باندفاع. وكان فيها خبث رائع ولطيف، مندسٌّ جيدًا إلى حين أن يُستفز. ثم كانت قادرة على الخدش، وعلى نحو فعال أيضًا. وكانت قادرة حين يتملكها الغضب على أن تقاوم بشراسة وتهور لا يعترفان بأي خطر أو تفوق عددي أو أية ظروف غير مرغوبة. كيف خدشت بوحشية أولئك الأولاد يوم أن اقتفوا أباها وغنوا بيتين من نظمهم يشيران إلى غرابة معينة في مشيته المترنحة! كيف قامت عمدًا...أعادت آيرين أفكارها من

جديد إلى الحاضر، إلى رسالة كلير كندري التي لم تزل ممسكة بها غير مفتوحة في يدها. وبأدنى شعور من القلق قصت الظرف بأناة كبيرة، سحبت الأوراق المطوية، نشرتها، ثم شرعت في القراءة.

رأت آيرين مباشرةً أنها تقرأ ما توقعته بمجرد معرفتها من ختم البريد أن كلير في المدينة. رغبةٌ موصوفة بإطناب في أن تراها مرة أخرى. حسنًا، أخبرت آيرين نفسها، إنها ليست بحاجة إلى أن تقبل ولن تفعل. ولن تساعد كلير في إدراك رغبتها الحمقاء في العودة لحظةً إلى تلك الحياة التي تركتها وراء ظهرها منذ زمن طويل، ومن تلقاء نفسها.

مررت بصرها على الرسالة، محاولة قدر ما أمكنها أن تفك ألغاز الكلمات المكتوبة بلا عناية أو تحدس مغزاها.

«لأني وحيدة، وحيدة جدًا ... لا أستطيع فعل شيء حيال توقي إلى أن أكون معك من جديد، إذ لم أتُق إلى شيء من قبلُ قط؛ ولقد أردت أشياء كثيرة في حياتي ... لا تستطيعين أن تعرفي كيف أني طوال الوقت في حياتي البليدة هذه أرى الصور المشعة لتلك الحياة الأخرى التي اعتقدت مرةً أني سعدت بالتحرر منها ... إنها مثل حمى، مثل ألم لا يتوقف أبدًا ...» أوراق فوق أوراق من هذا الحديث. انتهت أخيرًا بقولها: «وهي غلطتك، عزيزتي آيرين. ولو جزئيًا. لأني ربما لم تكن لتتملكني الآن هذه الرغبةُ الفظيعة العارمة لو لم أرك تلك المرة في شيكاغو ...»

توهجت رقعتان حمراوان لامعتان في خدّي آيرين ردفيلد الدافئين الزيتونيين.

«تلك المرة في شيكاغو.» برزت هذه الكلمات من بين باقي الكلمات في مقاطع الرسالة، جالبة معها ذكرى واضحة وحادة، اختلط فيها، حتى الآن وبعد سنتين، الخزي والامتعاض والغضب.

٢

هذا ما تذكرته آيرين ردفيلد.

شيكاغو. أغسطس. يوم مشع، حار، بشمس وحشية محدقة تصب أشعة كأنها المطر المنصهر. يوم ارتعشت فيه حتى حدود المباني كما لو كانت في احتجاج على الحرارة. انبثقت خطوط مرتجفة من الأرصفة المعجونة، وتلوّت على امتداد مسارات السيارات الساطعة. كانت السيارات المركونة عند الأرصفة لظى راقصًا، وأرسل زجاج نوافذ المتاجر وهجًا يعمي الأبصار. ارتفعت من أرصفة المشاة المحترقة ذرات حادة من الغبار، لاسعةً الجلود المكويّة والمقطرة للمشاة الذابلين. بدت النسمة الخفيفة التي هبّت مثل نَفَس لنار نفختها منافيخ بطيئة.

في ذلك اليوم من بين سائر الأيام صممت آيرين على التبضع لشراء الأشياء التي وعدت ابنيها الصغيرين، براين جونيور وثيودور، أن تحضرها من شيكاغو معها. نحّت هذه المهمة بشكل خاص حتى لم يبق من رحلتها الطويلة سوى بضعة أيام مزدحمة. هذا اليوم فقط كانت حرة من ارتباطاتها حتى المساء.

ابتاعت الطائرة الميكانيكية لجونيور دون أن تواجه كثيرًا من المتاعب. لكن كتاب الرسم، والذي قدم لها ثيو عنه ملاحظات دقيقة بإلحاح واهتمام عظيمين، أدخلها خمسة متاجر وأخرجها منها دون فلاح.

بينما كانت في طريقها إلى متجر سادس، سقط مباشرة أمام عينيها المرهقتين رجل، وأصبح في تكوّمه على الإسمنت الحارق كتلة هامدة. حول الجثة الساكنة تجمع حشد صغير. سألها أحدهم: هل مات الرجل، أم أغمي عليه فحسب؟ لكن آيرين لم تكن تعرف ولم تحاول أن تكتشف. تنحت بطريقها عن الحشد المتزايد، وهي تشعر بدبق وبلل مضايقين وقد لطخها الالتصاق بأجساد كثيرة متعرقة.

وقفت للحظة تهفّ على نفسها، وتربّت بقطعة منديل ضئيلة وجهَها الرطب. فجأة أصبح لديها وعيٌ بأن الشارع بأكمله يبدو متهاديًا فأدركت أنها على وشك أن تصاب بالدوار. دفعها إحساس مستعجل بالحاجة إلى الأمان الفوري إلى أن ترفع يدًا مرتعشة في اتجاه سيارة أجرة كانت متوقفة أمامها بالضبط. قفز السائق الذي يتصبب عرقًا خارج السيارة وقادها إلى سيارته. ساعدها، بل رفعها إلى داخل السيارة. غاصت في المقعد الجلدي الحار.

أضحت أفكارها سديمية لدقيقة ثم انجلى السديم.

أخبرت سامريًّا: «إنما أحتاج إلى الشاي في ظني. على السطح، في مكان ما».

اقترح: «الدرايتون، سيدتي؟ يقولون إن في أعلاه يهب النسيم دائمًا».

أجابته: «أشكرك. أعتقد أن الدرايتون سيكون مناسبًا».

ثم كان هناك الصوت الصغير لصرير دواسة الكلتش منسحبة حين عشّق الرجل السيارة وانزلق بها بمهارة في حركة المرور الفائرة. شرعت آيرين، إذ أنعش وعيها النسيم الدافئ الذي جلبته حركة سيارة الأجرة، في محاولات صغيرة لإصلاح ما ألحقته الحرارة والحشود بمظهرها من

ضرر.

وبأسرع مما توقعت انحرفت المركبة الصاخبة نحو الرصيف الجانبي وتوقفت. ترجل السائق وفتح الباب قبل أن يكون بوسع خادم الفندق ذي الزي المزركش الوصول إليه. خرجت من السيارة وشكرته مبتسمة بأدب على مساعدته الودية وتفهمه، وهي تدلف عبر أبواب الدرايتون الوسيعة.

لما نزلت من المصعد الذي أوصلها إلى السطح، قِيدت إلى طاولة ملاصقة تمامًا لنافذة عريضة تَعِد ستائرها المتحركة برقةٍ بنسيم بارد. فكرت أنها تشعر كما لو أنها حُملت بخفة للأعلى على بساط سحري إلى عالم آخر، لذيذ ومطمئن وناءٍ بغرابة عن العالم الطابخ الذي غادرته في الأسفل.

كان الشاي، عندما جيء به، كل ما رغبت به وتوقعته. في الواقع كان ما رغبت به وتوقعته إلى درجة أنها بعد الجرعة الأولى المنعشة كانت قادرة على نسيانه، مقتصرة على الارتشاف من الكوب الأخضر الطويل بين الحين والآخر، غافلة بعض الشيء، وهي تتفحص الغرفة من حولها ببصرها أو ترسله عبر النافذة إلى بعض المباني الأقصر القريبة من زرقة البحيرة الصافية الرائقة الممتدة إلى أفق غير مكتشَف.

ظلت محدقةً بعض الوقت في الأسفل باتجاه بقع السيارات والأشخاص الدابّة في الشوارع، ومفكرةً في مدى التفاهة التي تبدو تلك البقع عليها، حتى أخذتها الدهشة لمّا وجدت أن كوبها، وهي تلتقطه، قد فرغ أخيرًا. طلبت مزيدًا من الشاي، وريثما كانت تنتظر بدأت في تذكر وقائع اليوم وسؤال نفسها عما سوف تصنع بخصوص ثيو وكتابه. لماذا يصر على الدوام على طلب شيء يصعب أو يتعذر الحصول عليه؟ مثل أبيه، دائمًا يريد شيئا لا يمكنه الحصول عليه.

ظهرت في الأثناء أصوات، صوت هادر لرجل وآخر أجش قليلاً لامرأة. تجاوزها نادل، تتبعه امرأة تعبق برائحة جميلة في فستان مرفرف من الشيفون الأخضر، نسقه المختلط بالنرجس والزنابق والخزامى يذكّر بأيام الربيع السارّة الباردة. خلفها كان رجل محمر الوجه يمسح رقبته وجبهته بمنديل كبير متكوم.

«أوه يا إلهي!» تأوهت آيرين، وقد كدر مزاجها الانزعاج، لأنها بعد نقاش وضجة قصيرتين توقفا عند الطاولة المجاورة لها تمامًا. لقد كانت وحدها أمام النافذة وكان الوضع على نحو مُرضٍ في غاية الاطمئنان. الآن، وبطبيعة الحال، سيثرثران.

لكن لا. جلست المرأة وحدها. بقي الرجل واقفًا، واستمر يضغط بشكل مجرد عقدةَ ربطة العنق الزرقاء اللامعة. وعبر المسافة الصغيرة التي تفصل الطاولتين تهادى صوته بوضوح.

قال وهو ينظر أسفل إلى المرأة معلنًا: «أراك لاحقًا، إذن». كان في نغمته ابتهاجًا وعلى وجهه ابتسامة.

انفرجت شفتا رفيقته في إجابة ما، بيد أن كلماتها شوّشتها المسافةُ الصغيرة الفاصلة ومزيجُ الأصوات العائمة إلى أعلى من الشوارع في الأسفل. لم تصل إلى آيرين. لكنها لاحظت الابتسامة الخاصة بإمعانها في اللطف التي رافقت تلك الكلمات.

قال الرجل: «حسنًا، أعتقد أن من الأفضل أن أفعل» وابتسم من جديد، ثم ألقى تحية الوداع وغادر.

امرأة جذابة المظهر، كان رأي آيرين فيها، بتلكما العينين الداكنتين المائلتين إلى السواد، وذلك الفم الكبير مثل وردة قرمزية فوق عاجٍ

بشرتها. ملابس جميلة أيضًا، في تمام المناسبة للطقس، ناعمة ومهلهلة دون أن تكون فوضوية، كما يجدر بأشياء الصيف أن تكون.

كان نادلٌ يدون طلبها. شاهدتها آيرين وهي تبتسم له إذ تتمتم بشيء ما، ربما كان شكرًا. كانت ابتسامة من نمط غريب. لم يكن بوسع آيرين تحديدها، لكنها كانت متأكدة أنها ستصنفها، وهي تصدر عن امرأة أخرى نحو نادل، بأنها في غاية التحريض والإثارة. أما عن هذه المرأة فكان هناك شيء ما جعلها تتردد في أن تسميها كذلك. انطباع معين بالثقة، ربما.

عاد النادل بالطلب. شاهدتها آيرين تنكش منديل الطاولة، شاهدت الملعقة الفضية في اليد البيضاء تقدّ لبَّ ثمرة الشمام الذهبي الباهت. بعد ذلك أشاحت بنظرها في الحال بعيدًا بعد أن أدركت كم كانت تحدق.

آب ذهنها إلى شؤونها الخاصة. حلّت على نحو جازم مشكلة الفستان المناسب من بين اثنين لحفلة لعب الورق تلك الليلة، والتي ستقام في غرف سيكون فضاؤها خانقًا وحارًا بحيث يبدو كل نَفَس مثل نفخة على حساء. وإذ حسمت أمر الفستان، عادت أفكارها إلى معضلة كتاب ثيو من جديد، وعيناها الغافلتان مرسلتان إلى البحيرة في البعد، حتى أيقظها، بالاستعانة بحاستها السادسة، وعيٌ ثاقب بأن هناك من يراقبها.

نظرت ببطء شديد حولها، ثم في العينين الداكنتين للمرأة ذات الفستان الأخضر الجالسة على الطاولة المجاورة. لكنها أخفقت بوضوح في إدراك أن مثل هذا الاهتمام المكثف الذي تبديه قد يكون محرجًا، ولذا واصلت التحديق. كان تصرفُ المرأة تصرفَ مَن عزمت بأقصى ما يستطيع ذهنها من تركيز وتصميم على أن تطبع في ذاكرتها وللأبد كل تفصيل من تفاصيل ملامح آيرين برسوخ ودقة، ولم تُبدِ أدنى أثر من

الانزعاج لكونها اكتُشفت في تفحّصها الصريح.

عوضًا عن ذلك، كانت آيرين هي من شعرت بالارتباك. خفضت بصرها وقد أحست بلون وجهها يتضاعف تحت تأثير التفحص المتواصل. تساءلت، ما قد يكون السبب وراء هذا الاهتمام المستمر؟ هل قلبت، في عجلتها إذ ركبت سيارة الأجرة، قبعتَها؟ تحسّستها بحذر. لا. ربما كانت هناك مسحة من المسحوق على مكان ما من وجهها. مررت منديلها عليه بخفة وسرعة. كل شيء على ما يرام. ما الأمر إذن؟

نظرت إلى أعلى من جديد، ولوهلة حدّقت عيناها البنّيتان كما حدّقت عينا الأخرى السوداوان، اللتان لم تنهزما أو ترتجفا ولو لحظة واحدة. هزت آيرين عقلها قليلاً كما لو كانت تهز كتفيها. حسنًا، دعيها تنظر! حاولت أن تتعامل مع المرأة ومراقبتها بلا مبالاة، غير أنها لم تستطع. خابت كل جهودها في تجاهلِها، في تجاهلِ الأمر. استرقت نظرة أخرى. لا زالت تنظر. يا لعينيها الكسلانتين الغريبتين!

هكذا نما تدريجيًا في آيرين شعور داخلي صغير بالانزعاج، شعور بغيض ومألوف بشكل كريه. ضحكت بلطف، لكن عينيها التمعتا.

هل عرفت تلك المرأة، هل استطاعت أن تعرف، أن أمام عينيها مباشرة في سطح الدرايتون تجلس زنجية؟

غريب! مستحيل! إنّ البيض على درجة من الغباء تجاه هذه الأشياء، لدرجة أنهم طالما أكدوا على أنهم قادرون على تمييز الزنوج، وبأكثر الطرق سخفًا، من خلال أظافرهم، وراحات كفوفهم، وأشكال آذانهم، وأسنانهم، وغيرها من الأشياء التافهة. لطالما ظنوها إيطالية، أو إسبانية، أو مكسيكية، أو غجرية. لم يشكّوا أبدا، ولو من بعيد، عندما تكون بمفردها، أنها ربما تكون زنجية. لا، لا يمكن أن تكون المرأة التي

تجلس قبالتها الآن قد عرفت.

على أية حال، شعرت آيرين في المقابل بمشاعر الغضب والازدراء والخوف تتسلل إليها. ليس لأنها خجلت من كونها زنجية، أو على الأقل التصريح بهذا. بل إن ما أثار انزعاجها هو فكرة طردها من أي مكان، حتى بالطريقة المهذبة اللبقة التي يمكن أن يلجأ إليها فندق الدرايتون.

لكنها أعادت النظر، بجسارة هذه المرة، إلى العينين المسلطتين عليها بوضوح لا مراء فيه. لم تبدوا لها حانقتين أو عدائيتين. على العكس من ذلك، شعرت آيرين أنهما مستعدتان للابتسام إمّا ابتسمت هي. هراء، بالطبع. تجاوزت هذا الشعور، وأشاحت النظر بتصميم راسخ على أن تحدق بتركيز في البحيرة، وفي أسطح المباني على الناحية الأخرى من الشارع، وفي السماء، وفي أي مكان سوى تلك المرأة المضجرة. لكن عينيها لم تصمدا كثيرًا قبل أن تعاودا النظر من جديد. وفي غمرة ضباب اللا ارتياح استولت عليها رغبةٌ في أن تتحدى بالتحديق هذه المُراقِبة الوقحة. لنفترضْ أن المرأة عرفت عن عِرقها أو اشتبهت به. لن يكون بإمكانها إثباته.

كبر خوفها الصغير فجأة. نهضت جارتها من كرسيها وها هي مقبلة باتجاهها. ما الذي سوف يحدث الآن؟

قالت المرأة بدماثة: «عفوًا، ولكنني أظن أني أعرفك». حمل صوتها الأجش قليلاً نبرة مريبة.

تبددت شكوك آيرين ومخاوفها إذ رفعت بصرها إلى المرأة. لا يمكن أن تخطئ لطافةَ تلك الابتسامة أو أن تقاوم سحرها. استسلمت لها حالاً وابتسمت أيضًا، وهي تقول: «آسفة ولكني أظنك مخطئة».

تعجبت الأخرى: «يا إلهي! طبعا أعرفك! لا تخبريني بأنك لست آيرين ويستوفر. أوَما زالون يسمونك رين؟»

حاولت آيرين عبثًا، في الثانية القصيرة التي سبقت إجابتها، أن تتذكر أين ومتى يمكن لهذه المرأة أن تكون قد عرفتها. هناك، في شيكاغو. قبل زواجها. هذا ما كان واضحًا من كلامها. المدرسة الثانوية؟ الكلية؟ لجان جمعية الشابات المسيحيات؟ المدرسة الثانوية، على الأرجح. أي الفتيات البيض عرفَتْهن حق المعرفة بحيث يناديها رين بشكل مألوف؟ المرأة الواقفة أمامها لا تتطابق مع ذاكرتها عن أي واحدة منهن. من تكون؟

«نعم، أنا آيرين ويستوفر. وعلى رغم أنه لم يعد أحد يدعوني رين، فإن من الجيد سماع الاسم مرة أخرى. وأنت..» تلعثمت، وأصابها حرج من عدم استطاعتها التذكر، وأمِلت أن تكون الجملة قد انتهت بالنسبة لها.

«ألا تعرفينني؟ أحقًا، يا رين؟»

«آسفة، لكني يبدو أنني لست قادرة على أن أميّزك في هذه اللحظة».

تفحصت آيرين المخلوق الفاتن الواقف إلى جوارها بحثًا عن دليل ينبئ عن هويته. من يمكن أن تكون؟ أين ومتى التقتا من قبل؟ وفي وسط حيرتها دهمتها فكرةُ أن الحيلة التي قامت بها ذاكرتها كانت لسبب معين مُرضية بالنسبة لصديقتها القديمة أكثر مما كانت مخيبة، إذ لم تكترث لكونها لم تُعرف.

زد على ذلك أن آيرين شعرت بأنها على وشك أن تتذكرها فعلاً. حيث إن للمرأة صفةً ما، شيئًا غامضًا، مبهمًا إلى درجة يستعصي معها على التحديد، بعيدًا إلى درجة يستعصي معها على الإمساك به، لكنه مألوف

جدًا بالنسبة لآيرين ردفيلد. وذاك الصوت. لا شك أنها سمعت من قبل تلك النبرات الجَشّاء في مكانٍ ما قبل اليوم. ربما قبل أن يحولها الوقت أو الاتصال أو شيء آخر صوتًا يوحي من بُعد إلى إنجلترا. آه! أيكون أن قد التقتا في أوروبا؟ رين. لا.

بدأت آيرين: «ربما. أنت..»

ضحكت المرأة، ضحكة فاتنة، سلسلة قصيرة من النغمات التي كانت تشبه زغردة، تشبه أيضًا رنين جرس مرهف مُصاغٍ من معدن نفيس، مثل خشخشة عذبة.

سحبت آيرين نفسًا عميقًا وسريعًا. وتعجبت: «كلير! ألست كلير كندري؟»

كان اندهاشها عظيمًا جدًا بحيث بدأت في النهوض من مقعدها.

«لا، لا تقومي». أمرتها كلير كندري، ثم جلست هي الأخرى. «يتعين عليك أن تجلسي وتتكلمي. وسنطلب شيئًا آخر. شاي؟ يا له من أمر خيالي أن ألقاك هنا! إنه ببساطة مفرط جدًا جدًا في الحظ!»

«مدهش إلى أبعد حد» أخبرتها آيرين، وعرفت إذ رأت التغيير في ابتسامة كلير أنها قد فضحت زاويةً من أفكارها الخاصة. لكنها اكتفت بالقول: «ما كنت لأعرفك إطلاقًا لو لم تضحكي. لقد تغيرتِ. ومع ذلك، بطريقة ما، لا زلت نفسك».

ردت كلير: «ربما. أوه، لحظة فقط».

لفتت انتباه النادل الواقف إلى جوارها. «دعني أفكر.. كوبان من الشاي. وأحضر بعض السجائر. نعم. ستفي بالغرض. أشكرك». ثم

تلك الابتسامة المتفردة في غرابتها تارة أخرى. الآن تأكدت آيرين أنها في غاية الإغراء بالنسبة لنادل.

في الأثناء التي كانت تُملي فيها كلير الطلب، أجرت آيرين عملية حسابية ذهنية سريعة. خلصت إلى أنه لا بد أن اثني عشر عامًا انصرمت منذ أن رأت آيرين، أو أي أحد تعرفه، كلير كندري.

فعقب موت أبيها ذهبت للعيش مع بعض أقاربها، عمات أو بنات عم من الدرجة الثانية أو الثالثة، على الجانب الغربي من المدينة، أقارب لم يكن أحد يعرف بوجودهم حتى ظهروا في جنازة بوب كندري وأخذوا كلير معهم بعيدًا.

ولمدة سنة تَلَتْ أو أكثر، كانت تظهر بين فينة وأخرى مع صديقاتها القديمات ومعارفها في الجانب الجنوبي في زيارات قصيرة فهم الجميع أنها تسترقها دائمًا من بين المهام المنزلية السرمدية في بيتها الجديد. ومع كل محاولة لاحقة تبدو أطول وبملابس أكثر رثاثة وأكثر استعدادًا للخصام. كما كانت النظرة على وجهها في كل مرة أكثر حنقًا وإطراقًا. تذكرت آيرين أمها تقول: «أنا قلقة بشأن كلير، لا تبدو سعيدة أبدًا». تقلص عدد الزيارات، أصبحت أقصر، وأقل، وتباعدت حتى انقطعت في النهاية.

زار والد آيرين، الذي كان معجبًا ببوب كندري، الجانب الغربي زيارة خاصة بعد حوالي شهرين منذ آخر مرة أتت كلير لرؤيتهم، وعاد بمعلومة وحيدة مفادها أنه قد رأى الأقارب وأن كلير قد اختفت. أما ما أسرّ به إلى أمها، حين اعتزلا في غرفتهما الخاصة، فلم تعلم عنه آيرين شيئًا.

لكن كان لديها ما هو في طبيعته أكثرُ من ارتياب مبهم. حيث راجت

هناك شائعات. شائعات كانت شائقة ومثيرة للاهتمام بالنسبة لفتيات في الثامنة عشرة والتاسعة عشرة.

كانت هناك واحدة عن رؤية كلير كندري في ساعة العشاء في فندق فخم يرافقها امرأة ورجلان، كلهم من البيض. ومتأنقين! وكانت هناك أخرى عن رؤيتها وهي تقود سيارة في حديقة لينكولن مع رجل، أبيض من دون شك، ويبدو عليه الثراء. ليموزين پاكارد، سائق في بزّة، وغيرها. كانت هنالك أخريات لم تعد آيرين تتذكر سياقاتها، غير أنها جميعها تشير إلى نفس الاتجاه المبهر.

وبوسعها أن تتذكر بوضوح كبير كيف كانت الفتيات، عندما كنّ يجترِرن تلك القصص المحيرة عن كلير ويناقشنها، ينظرن دائما بدراية إلى بعضهن ثم، مع قهقهات خجلى صغيرة، يسحبن بعيدًا أعينهن البراقة تلهّفًا ويقُلن بنبرات ندم أو جحود مستترة أشياءَ من مثل: «أووه، ربما حصلت على وظيفة أو ما شابهها»، أو «في نهاية الأمر قد لا تكون هي كلير»، أو «لا يمكن للمرء أن يصدق كل ما يسمع».

ودائما ما تعلن فتاة تفوق الباقيات في مباشرتها وخبثها الصريح: «بالطبع، إنها كلير! روث قال إنها هي، وكذلك قال فرانك، وهما بالتأكيد يعرفانها عندما يريانها كما نعرفها نحن». فتقول أخرى: «صحيح، تستطيعين المراهنة على أنها كلير، بشحمها ولحمها». ثم ينضممن جميعهن في التأكيد على أنه ما من أدنى شك في كونها كلير، وأن تلك الظروف لا يمكن أن تعني سوى شيء واحد. أنها تعمل بكل تأكيد! لم يكن الناس يصطحبون خادماتهم إلى مطعم شلبي للعشاء. بالتأكيد ليس في كامل أناقتها هكذا. حينها تتبع عبارات ندم منافقة، وتقول إحداهن: «الفتاة المسكينة، أظن أن الأمر حقيقي فعلاً، لكن ما الذي تتوقعن. انظرن إلى أبيها. وأمها، كما يقال، كانت ستهرب لو لم تمُت. إضافة إلى ذلك، كان

لكلير دائما طريقتها الخاصة في التملك».

بالضبط! أتت الكلماتُ آيرين وهي جالسة هناك في سطح الدرايتون، في مقابل كلير كندري. «طريقتها الخاصة في التملك». حسنًا، اعترفت آيرين، أضحى من الجليّ أن كلير، وبالحكم على مظهرها وأسلوبها، قد نجحت في الحصول على بضعة الأشياء التي أرادتها.

كررت آيرين، بعد الفترة الفاصلة التي استأثر بها النادل، أنها مفاجأة كبرى، ومبهجة جدًا، أن ترى كلير من جديد بعد كل تيك السنين، اثنتي عشرة سنة على الأقل.

«لا أصدق، يا كلير، أنت آخر شخص في العالم كنت أتوقع أن ألتقيه مصادفة. أخال أن هذا السبب الذي جعلني لم أتعرف عليك في البداية».

أجابت كلير برزانة: «نعم. إنها اثنتا عشرة سنة. لكنني لست متفاجئة لرؤيتك، رين. أقصد، ليس كثيرًا. في الحقيقة منذ أن جئتُ إلى هنا وأنا آمل أن أراك أنت أو غيرك. على أني أفضّل أن تكون أنت. مع ذلك، أتخيل أن لقاءنا حدث لأني لطالما فكرت فيك مرارًا وتكرارًا، بينما أنت، أراهن أني لم أخطر على بالك أبدًا».

كان هذا صحيحًا بالطبع. فبعد التكهنات والاتهامات الأولية اختفت كلير تمامًا من أفكار آيرين. ومن أفكار الأخريات أيضًا، إن كانت لمحادثاتهن أدنى دلالة على أفكارهن.

إلى جانب ذلك، لم تكن كلير قط واحدة من المجموعة تمامًا، بالضبط كما لم تكن مجرد ابنة البواب، بل ابنة السيد بوب كندري الذي، صحيح أنه كان بوابًا، ولكنه أيضا زامل بعض آبائهن في الكلية كما يبدو. أما كيف ولماذا قُدر له أن يكون بوابًا، وعلى وجه الدقة بوابًا غير كفء إطلاقًا،

فهذا ما لم تعرفه أي واحدة منهن. أحد إخوة آيرين، الذي طرح السؤال أمام أبيها، جاءه الجواب: «هذا مما ليس من شغلك» ولقي نصيحة بأن يتنبه لئلا ينتهي به المطاف بمثل ما انتهى بـ «بوب المسكين».

كلا، لم تفكر آيرين بكلير كندري. فقد كانت حياتها الخاصة مزدحمة بما يكفي. وكذلك، كما افترضت، كانت حيوات الآخرين. دافعت عن نسيانها.. نسيان الآخرين. «تعرفين كيف هي الأمور. الكل مشغول جدًا. الناس يغادرون، ينقطعون، ربما يكون هناك حديث عنهم لبعض الوقت، أو أسئلة، ثم تدريجيًا يُنسون».

وافقتها كلير: «نعم، هذا طبيعي». ثم استفهمت عما قال عنها الناس لبعض الوقت ذاك في البداية قبل أن ينسوها بالكلية.

أشاحت آيرين بنظرها بعيدًا. شعرت باللون الفاضح يرتفع في خديها. قالت متفادية: «لا يمكنك أن تتوقعي مني أن أتذكر توافه كتلك طوال اثنتي عشرة سنة من الزيجات، وحالات الولادة، والميتات، والحرب».

هناك جاءت زغرودة النغمات التي كانت ضحكة كلير كندري، خفيفة وواضحة وفي صميم التهكم.

صاحت: «أوه، يا رين! بالطبع تتذكرين! لكني لن أضطرك إلى إخباري لأني أعرف كما لو أنني كنت هناك وسمعت كل كلمة غير ملائمة. أوه، أنا أعرف، أعرف. رآني فرانك دانتون في مطعم شلبي ذات ليلة. لا تقولي لي إنه لم يُذع الخبر، ويزركشه أيضًا. ربما رآني آخرون في أوقات أخرى. لا أعلم. لكني مرة قابلت مارغريت هامر في متجر مارشال فيلد. كنت سأخبرها، على وشك أن أخبرها، لكنها انصرفت عني متجاهلة. عزيزتي رين، أؤكد لك ذلك من الطريقة التي كانت تنظر بها إليّ، حتى إنني لم أكن متأكدة مما إذا كنت حقًا هناك بلحمي أم لا.

أتذكرها بوضوح، بوضوح تام. كان ذلك الشيء تحديدًا ما دفعني أخيرًا، بطريقة ما، إلى التصميم على ألا أخرج وأراك مرة أخيرة قبل أن أبتعد. شعرت بطريقة ما أنه ما كان يجدر بي أن أقوى على تحمّل ذلك، باعتبار كم كنتم، كل عائلتك، لطفاء دائمًا مع الطفلة المسكينة البائسة التي كنتُها. أعني، لو تحدّث عني أي واحد منكم، أمك أو الأولاد أو.. أوه، حسنًا، شعرت أنه خير لي ألا أعرف إنْ تحدّث أحد منكم. وهكذا بقيت بعيدة. سخف مني، كما أظن. أحيانا ينتابني أسف عميق أنني لم آتيكم».

تعجبت آيرين مما إذا كانت الدموع وحدها ما جعلت عيني كلير مضيئتين.

«والآن، يا رين، أريد أن أسمع كل شيء عنك وعن الجميع وعن كل شيء. أنتِ متزوجة، كما أفترض؟»

أومأت آيرين.

قالت كلير بدراية: «نعم، أفهم تمامًا ما تشعرين به».

وهكذا ظلتا لمدة ساعة أو تزيد تدخنان وتشربان الشاي وتملآن فراغ اثنتي عشرة سنة بالحديث. بالأحرى، ذلك ما فعلته آيرين. أخبرت كلير عن زواجها وانتقالها إلى نيويورك، عن زوجها، عن ابنيها، اللذين يمران بتجربتهما الأولى بعيدا عن والديهما في مخيم صيفي، عن موت أمها، عن زواج أخويها. سردت لها الزيجات، والولادات، والوفيات في عائلات أخريات كانت كلير تعرفها، فاتحةً أمامها آفاقا جديدة على حيوات الأصدقاء والصديقات والمعارف القدامى.

تشربت كلير كل هذا، كل هذه الأشياء التي طالما اشتاقت إلى أن تعرفها ولم تكن قادرة أن تعلم عنها شيئًا. ظلت جالسة دون حراك، شفتاها

منفرجتان قليلاً، يضيء كاملَ وجهها تألقُ عينيها السعيدتين. كانت تطرح بين الفينة والأخرى سؤالاً، لكنها في الغالب كانت صامتة.

دقت في مكان ما في الخارج ساعة. خفضت آيرين نظرها إلى ساعتها، وقد أعادتها دقة الساعة إلى الحاضر، ثم هتفت: «أوه، يتعين عليّ أن أذهب يا كلير!»

مرت لحظة كانت فيها ضحيةً لعدم الارتياح. تبدى لها فجأة أنها لم تسأل كلير أي شيء عن حياتها وأن الرغبة الجازمة في أن تفعل ذلك تعوزها. وكانت في تمام وعيها لسبب ذلك التردد. لكن، سألت نفسها، أليس قمةُ اللطف والكياسة ألاّ تسألها، باعتبار كل الأشياء؟ لو سارت الأمور مع كلير مثلما توقعت هي، بل مثلما توقع الجميع، ألا تستدعي اللباقة إذن أن تبدو وقد نسيت أن تستفسر منها عن الكيفية التي قضت بها تلك الاثنتي عشرة سنة؟

لو؟ إن تلك اللو هي ما أزعجها. قد يكون حقًا أن لا شيء حدث مما يتعذر توضيحه بسهولة وبراءة، على رغم كل تلك الإشاعات بل وحتى المظاهر في المقابل. تعلم الآن أن المظاهر بطبعها قد لا تطابق الحقائق أحيانًا. وإن كانت تلك الأقاويل مخطئة تمامًا فإنها من دون شك ستبدي بعض الاهتمام لسماع ما حدث لكلير. سيبدو الأمر غريبًا وقاسيًا إن لم تفعل. لكنها أخيرًا قررت أنه ما من سبيل، ولذا فإنها اكتفت بالقول من جديد: «يجب أن أذهب يا كلير».

توسلت كلير، دون أن تتحرك من مكانها: «أرجوك، ليس بهذه السرعة يا رين».

فكرت آيرين في داخلها: «إنها بالفعل مفرطة في الجمال، ولا غرو أن تكون...»

«والآن، يا عزيزتي رين، بما أني وجدتك، أود أن أراك كثيرًا كثيرًا. نحن هنا لشهر على الأقل. لدى جاك زوجي عمل هنا. المسكين، في هذا الحر. أليس مقيتًا؟ تعالي لتناول العشاء معنا الليلة، أتأتين؟» ورمقت آيرين بنظرة صغيرة فضولية ومائلة، وارتسمت ابتسامة ماكرة وتهكمية على شفتيها الحمراوين الممتلئتين، كما لو كانت في قلبِ أفكار الأخرى وكانت تهزأ بها.

كانت آيرين واعية لنَفَس حاد تسرب إلى صدرها، لكن أكانَ ارتياحًا أم كدرًا ذاك الذي أحسّته، فهذا ما لم تستطع تحديده بنفسها. قالت على عجل: «يؤسفني أني لا أستطيع يا كلير. أنا شبعانة ومشغولة. آسفة جدا».

«تعالي غدًا إذن، لشرب الشاي». أصرت كلير. «سترين مارجري، للتو بلغت العاشرة، وربما جاك أيضًا، إن لم يكن على موعد أو ما شابه».

صدرت عن آيرين ضحكة صغيرة قلقة. لديها ارتباط في الغد أيضًا، وخشيت ألا تصدقها كلير. وفجأة أقلقها ذلك الاحتمال. ولهذا فإنها، وبشعور مغتاظ قليلاً بسبب إحساسها بالذنب غير المستحق الذي داهمها، شرحت كيف أن قبولها دعوة كلير غير ممكن لأنها لن تكون متفرغة للشاي أو الغداء أو العشاء حتى. «وغدًا يوم جمعة، حيث سأذهب لعطلة نهاية الأسبوع، آيدلوايلد، تعرفين. كثير من الناس يتجه إليها هذه الأيام». ثم جاءها إلهام بعد ذلك.

صاحت: «كلير! لماذا لا تأتين معي؟ منزلنا على الأرجح ممتلئ عن بكرة أبيه، من عادة زوجة جيم أن تجمع الغوغاء من أكثر الناس الذين لا يطاقون، لكن يمكننا دائمًا أن نجد مكانًا إضافيًا لواحدة. وسترين الجميع بكل تأكيد».

وفي اللحظة التي قدمت فيها الدعوة ندمت عليها. يا له من اندفاع أحمق ومغفل ذاك الذي استسلمت له! تأوهت في داخلها لما فكرت في التوضيحات الأبدية التي ستجد نفسها مضطرة لتقديمها، وفي الفضول، وفي اللغط، وفي الحواجب المرفوعة. طمأنت نفسها أن رفضها لن يكون بسبب أنها متكبرة أو أنها تبالغ في الاهتمام بالقيود والفوارق التافهة التي اختار مجتمع السود أن يحيط بها نفسه، ولكن لأن لديها نفورًا طبيعيًا ومتجذرًا من سوء السمعة الذي سيعرضها له وجود كلير كندري في أيدلوايلد باعتبارها ضيفتها. وها هي، على عكس ما تشتهي وعكس كل منطق، تقدم لها دعوة.

لكن كلير هزت رأسها. قالت بنبرة حزينة: «حقًا، سيكون من دواعي سروري يا رين. ما من شيء أفضّله أكثر. غير أني لا أستطيع. لا يجب أن أفعل، كما ترين. لن ينجح الأمر إطلاقًا. متأكدة أنك تتفهمين. أنا أريد بجنون أن آتي، لكني لا أستطيع». ومضت العينان الداكنتان فكانت هناك رائحة تهدج في الصوت الأجش. «وصدقيني، رين، أشكرك على دعوتك. لا تظني أني نسيت تمامًا ما الذي سيعنيه الأمر بالنسبة لك تحديدًا لو أتيتُ معك. أعني، لو كنت ما تزالين تكترثين لمثل هذه الأشياء».

تلاشت كل دلائل الدموع من عينيها وصوتها، وشعرت آيرين ردفيلد، إذ تفحصت وجه كلير، بإهانة لأن خلف ما هو الآن مجرد قناع عاجي استترت تسليةٌ محتقِرة. نظرت بعيدًا، إلى الجدار البعيد خلف كلير. حسنًا، لقد استحقت هذا لأنها شعرت بالارتياح، كما أقرّت بنفسها. ولنفس السبب الذي أشارت إليه كلير. مع ذلك فحقيقةُ أن كلير لمّحت إلى اضطرابها لم تنقص من ارتياح آيرين بشكل من الأشكال. كل ما في الأمر أن اكتشاف تورطها فيما قد يبدو نفاقًا أزعجها.

قَدِم النادل بباقي حساب كلير. ذكّرت آيرين نفسها بأن عليها أن تذهب في الحال. بيد أنها لم تتحرك.

الحق أنها كانت فضولية. كانت هنالك أشياء تود أن تسأل كلير كندري عنها. أرادت أن تعرف عن مسألة «العبور» المجازفة تلك، عن الانعتاق من كل شيء مألوف وحميمي للعثور على فرصة في بيئة أخرى، ربما ليست غريبة كليًا لكنها من دون شك ليست حميمية كليًا. ماذا يصنع أحدهم، على سبيل المثال، بخلفيّته التي أتى منها، وكيف يقدّم لنفسه؟ ما الذي يشعر به أحدهم حين يكون على اتصال مع زنوج آخرين؟ لكنها لم تستطع. لم تكن قادرة على التفكير في سؤال واحد لم يكن في سياقه أو صياغته فضوليًا بشكل صارخ، إن لم يكن وقحًا أصلاً.

علقت كلير برصانة، كما لو كانت على وعي برغبتها وترددها: «أتعلمين يا رين، لطالما استغربت من فتيات ملونات، فتيات مثلك أنت ومارغريت هامر وإستر دوسن و لاأوه، وأخريات كثيرات لماذا لم «تعبرن»؟ إنه لشيء سهل لدرجة مخيفة. لو أرادت واحدةٌ أن تعبر فكل ما يلزمه الأمر مقدارٌ ضئيل من الجرأة».

«ماذا عن الخلفية؟ أقصد العائلة. بالطبع لا يمكنك أن تهبطي على أناس من اللا مكان ثم تتوقعي منهم أن يستقبلوك بأحضان مشرعة، أليس كذلك؟»

أكدت كلير: «تقريبًا. سيفاجئك يا رين كم أن الأمر أسهل بكثير مع البيض منه معنا. ربما لأنهم كثيرون جدًا، أو لأنهم آمنون بحيث لا يضطرون للاكتراث. لم أدْرِ قطُّ ما السبب».

نزعت آيرين إلى الشك. «أتعنين أنك لم تضطري إلى توضيح من أين أتيت؟ يبدو مستحيلاً».

رمقتها آيرين بنظرة لهو مكبوت عبر الطاولة. «في واقع الحال، لم أفعل. على رغم أني أفترض أني قد أضطر تحت أية ظروف أخرى إلى اختلاق حكاية ما قابلة للتصديق لتقديم نفسي. أتمتع بخيال جيد، ولذلك أنا متأكدة من أنه كان يمكن أن أفعلها بطريقة مشرّفة وموثوقة. غير أنه لم يكن ضروريًا. كانت عمتاي هناك، كما ترين، محترمتان جديرتان بالثقة بما يكفي لأي شيء أو أي أحد».

«المهمت. كانتا «عابرتين» أيضا».

«لا، لم تكونا كذلك. كانتا بيضاوين».

«أوه!» وفي اللحظة التالية تبيّن لآيرين أنها قد سمعت من قبل أباها، أو على الأرجح أمها، يذكر هذا. كانتا عمتَي بوب كندري. فقد كان ابنا لأخيهما. الدم وما يفعل.

أوضحت كلير: «كانتا سيدتين عجوزين لطيفتين، متدينتين جدًا وفقيرتين كجرذان الكنيسة. أخوهما المحبوب ذاك، جدي، أخذ كل فلس كانتا تملكانه بعد أن أتى على نزره اليسير».

توقفت كلير في سردها لتشعل سيجارى أخرى. لاحظت آيرين أن ابتسامتها، تعابير وجهها، يشوبها حنقٌ ما.

تابعت: «ولأنهما مسيحيتان صالحتان، فقد قامتا بواجبهما ومنحتاني بيتًا وضيعًا عندما لقي أبي حتفه مخمورًا. صحيح أنه كان متوقعًا مني أن أكسب قوتي من خلال القيام بكل المهام المنزلية وأغلب الغسيل. لكن هل تدركين يا رين أنه لولاهما لما حصلت على مكان في العالم يؤويني؟»

أومأت آيرين وكانت تمتمتها مدركة ومتفهمة.

علا وجه كلير تكشيرة مزعجة وواصلت: «كما أن الشغل بحسب تفكيرهما كان نافعًا لي. في عروقي دم زنجي، وهما تنتميان إلى الجيل الذي كتب وقرأ مقالات طويلة مُعنونَة بمثل «هل سيعمل السود؟» إضافة إلى ذلك لم تكونا متأكدتين مما إذا كان الله الرحيم لم يشأ لأبناء حام وبناته أن يتعرّقوا لأنه سخر من نوح العجوز مرة حين أفرط في الشراب. أتذكر العمتين تخبرانني أن السكير العجوز لعن حام وأولاده إلى الأبد».

ضحكت آيرين. أما كلير فظلت جادّة تمامًا.

«الأمر أكثر من مزحة يا رين، أؤكد لك. كانت حياة قاسية على بنت في السادسة عشرة. مع ذلك كان لي سقف يظلني، وطعام وملابس. ثم كان هناك الكتاب المقدس، والحديث عن الأخلاق والتدبير والمثابرة وحب الرب العظيم للعطف والرحمة».

سألت آيرين: «هل توقفتِ مرة يا كلير للتفكير في كم من التعاسة والقسوة الصريحة يوضع في طريق عطف الرب؟ ودائما من قِبل أكثر أتباعه حماسا كما يبدو».

تعجبت كلير: «هل توقفتُ مرة؟ إن ذلك ما جعلني ما أنا عليه الآن. لأني عقدت العزم بالطبع على أن أهرب، على أن أكون شخصًا، لا عالة أو مشكلة، أو حتى ابنة للطائش حام. ثم إنني أيضًا أردت أشياء. عرفت أني لست سيئة المنظر وأني قد «أعبر». لا يمكنك أن تعرفي يا رين كيف كنت أكرهكم جميعًا تقريبًا عندما كنت أذهب إلى الجانب الجنوبي. كنتم تملكون كل الأشياء التي أردتُها ولم أستطع الحصول عليها أبدًا. وقد جعلني ذلك أكثر تصميمًا على الحصول عليها وعلى غيرها. هل تفهمين، هل تستطيعين أن تفهمي ما كنت أشعر به؟»

رفعت بصرها في تأثر حاد وجذاب، وإذ وجدت تعبيرًا عن التعاطف باديًا على وجه آيرين أكملت: «كانت العمتان غريبتين. فعلى رغم كل أناجيلهما وصلواتهما وثرثرتهما عن الاستقامة، لم تريدا أن يعرف أي أحد أن أخاهما العزيز قد أغوى، أفسد كما يقلن، فتاة زنجية. استطاعتا أن تغفرا الإفساد، لكنهما لم تستطيعا أن تغفرا لون القطران. حرّمتا عليّ أن أذكر السود للجيران أو حتى أن أذكر الجانب الجنوبي. لعلك متأكدة أني لم أفعل. وأراهن أنهما كانتا طيبتين بقدر ما كانتا نادمتين فيما بعد».

ضحكت وكان للأجراس الرنانة في ضحكتها صوت معدني صريح.

«عندما حانت الفرصة لأن أبتعد، كان لذلك السر فائدة عظيمة بالنسبة لي. فحين ظهر جاك، زميلٌ في المدرسة لبعض أهل الحي، من أمريكا الجنوبية، بكنز مكنوز، لم يكن ثمة من يخبره أني ملونة، بينما أخبره كثيرون عن صرامة عمتي غريس وعمتي إدنا وتدينهما. باستطاعتكِ تخمين الباقي. بعدما جاء، كففتُ عن التسلل إلى الجانب الجنوبي وبدأت أتسلل لمقابلته بدلاً من ذلك. لم أقدر على فعل الاثنين. في النهاية لم أواجه صعوبة كبيرة في إقناعه أنه لا طائلَ من الحديث عن الزواج أمام العمتين. وهكذا في اليوم الذي بلغت فيه الثامنة عشرة رحلنا وتزوجنا. بهذه السهولة. ما كان لشيء أن يكون أسهل من هذا».

«نعم، أفهم أن الأمر بالنسبة لك غايةٌ في السهولة. بالمناسبة! أتعجب لماذا لم تخبر عمتاك أبي بأنك قد تزوجت. ذهب مرارًا للسؤال عنك بعد أن كففت عن زيارتنا. أنا متأكدة أنهما لم تخبراه بأي شيء، ولا حتى عن زواجك».

لمعتْ عينا كلير بدموع لم تنحدر. «أوه، يا للطفه! أن يهتم بي بما يكفي ليقوم بكل ذلك. الرجُل العزيز النقي. لم تخبراه بزواجي لأنهما لم تعلما

عنه. لقد تكفلتُ شخصيًا بالأمر، لأني لم أكن على يقين تام بأن ضميريهما سيبدآن العمل فيما بعد ويدفعانهما إلى إفشاء السر. لا بد أن المخلوقتين العجوزين كانتا تظنان أني أعيش، حيثما كنتُ، في الخطيئة. وسيكون موضوع زواجي قريبًا من توقعهما».

أضاءت ابتسامةٌ مبتهجةٌ الوجهَ الفاتن لأصغر جزء من الثانية. وبعد برهة من الصمت قالت بوعي: «لكني آسفة إن أخبرتا أباك بهذا. لقد كان ذلك شيئًا لم أعول عليه».

أخبرتها آيرين: «لستُ متأكدة من أنهما فعلتا. لم يقل هذا، على أية حال».

«لن يفعل، يا عزيزتي رين. ليس أبوك من ذلك النوع».

«أشكرك. متأكدة أنه لن يفعل».

«لكنك لم تجيبي أبدًا على سؤالي. أخبريني، بأمانة، ألم تفكري قط في «العبور»؟»

أجابت آيرين حالاً: «لا، لِمَ عليّ أن أفعل؟» وكان وجهها مليئًا بالازدراء وكذلك طريقتها في النفي لدرجة أن وجه آيرين تورّد خجلاً وتلألأت عيناها. ثم أسرعت لترد: «كما ترينَ يا كلير، لدي كل ما أريد ما عدا، ربما، مزيد من المال».

هنالك ضحكت كلير، وقد تلاشت شرارة غضبها بنفس السرعة التي ظهرت بها. قالت معلنة: «بالطبع، هذا ما يريده الجميع، مزيدًا من المال، حتى أولئك الذين يمتلكونه. ويلزمني القول إني لا ألقي باللوم عليهم. ما أجمل أن يملك المرء مالاً! وفي الحقيقة يا رين، بالنظر إلى كل شيء، أعتقد أنه أيضًا يستحق الثمن».

لم يكن بوسع آيرين سوى أن تهز كتفيها. عقلُها اتفق جزئيًا، أما غريزتها فاحتجّت كليًا. ولم تكن تعرف لماذا. وعلى رغم أنها كانت على وعي بأنها لو لم تسرع في المغادرة فلسوف تتأخر عن العشاء، فإنها ظلت تتوانى. كما لو أن المرأة الجالسة على الطرف الآخر من الطاولة، البنت التي لم تعرفها قط، التي قامت بهذا الفعل الخطير، والمقيت في نظر آيرين ردفيلد، بنجاح وأعلنت نفسها راضية، تشعر تجاهها بافتتان غريب ومُلِحّ.

كانت كلير كندري لا تزال تسند ظهرها إلى الكرسي الطويل الذي يبرز كتفاها المائلان دون رأسه المنقوش. جالسة بمظهر ثقةٍ غير مبالية، كما لو أنها شيء مرتب، شيء مرغوب. وحولها تعلّق ذلك الإيحاءُ الغامض بالغطرسة المهذبة التي تولد بها نساء قليلات وتكتسبها بعضهن مع مجيء الترف أو الأهمية.

ما منح آيرين نزرًا يسيرًا من الرضا أن كلير لم تحصل على تلك الغطرسة من خلال العبور على أنها بيضاء. لطالما كانت تمتلكها بنفسها.

تمامًا مثلما كان لها دائمًا ذلك الشعر الذهبي الباهت الذي لم تقصه بعد، والذي ينسدل بحرية إلى الخلف منطلقًا من جبين عريض تخفيه جزئيًا القبعة الصغيرة الضيقة. كانت شفتاها، وهما مصبوغتان بأحمر قان، عذبتين ومرهفتين وعنيدتين قليلاً. ثغر مُغوٍ. الوجه من ناحية الجبهة والخدين عريضٌ قليلاً، ولكن البشرة العاجية لها بريق ناعم خاص. كما كانت العينان بديعتين! داكنتان، أحيانا سوداوان كليًا، ودائمًا مضيئتان، تكتنفهما رموش سوداء طويلة. عينان خلابتان، بطيئتان وفاتنتان، فيهما، بسبب دفئهما، شيء دفين وسري.

آه! بالتأكيد! كانتا عينين زنجيتين! غامضتين ومُداريتين. ولأنهما موضوعتان في ذلك الوجه العاجي تحت الشعر الفاتح، فقد كان فيهما

شيء غريب.

نعم، لقد كان جمال كلير كندري أمرًا محسومًا، عصيًّا على الاعتراض، بفضل تينك العينين اللتين أعطتهما إياها جدتُها، ثم بعد ذلك أمها وأبوها.

انسلت إلى تلك العينين ابتسامة، وغشا آيرين إحساسٌ بكونها ملاطَفة ومداعَبة. أعادت الابتسامة بمثلها.

اقترحت كلير: «لعلك تستطيعين المجيء يوم الإثنين إن عدت، وإلا فالثلاثاء إذن».

بتنهيدة صغيرة مفعمة بالحسرة، أخبرت آيرين كلير أنها لن تكون قد عادت يوم الإثنين وأنها على يقين بأن عشرات المشاغل تنتظرها ليوم الثلاثاء، وأنها ستغادر الأربعاء. ولكن قد تستطيع إيجاد فراغ يوم الثلاثاء.

«أرجوك، حاولي. أجّلي أحدها. يستطيع الآخرون رؤيتك في أي وقت، بينما أنا... قد لا أراك مرة أخرى! فكري في هذا، رين! عليك أن تأتي، قطعًا عليك أن تأتي. لن أغفر لك أبدًا إن لم تفعلي».

في تلك اللحظة بدا التفكير في عدم رؤية كلير كندري مرة ثانية شيئًا مريعًا. وإذ وقفت آيرين هناك تحت سطوة توسل عينيها وملاطفتهما، تملكتها رغبةٌ، تملكها أملٌ، في ألا يكون هذا الفراق الأخير.

وعدت برقة: «سأحاول يا كلير. سأهاتفك.. أو أنك ستهاتفينني؟»

«أظن أن من الأفضل أن أهاتفك. أعرف أن عنوان أبيك في الدليل، وهو نفس عنوانك. أربعة وستون وثمانية عشر. ذاكرة رائعة، أليس كذلك؟

لذكري الآن أني سأنتظرك. عليك أن تكوني قادرة على المجيء».

ثم جاءت، من جديد، الابتسامة اللينة على نحو خاص.

«سأفعل ما بوسعي يا كلير».

التقطت آيرين قفازيها وحقيبتها. نهضتا. مدت يدها فأخذتها كلير وأمسكت بها.

«لقد كانت رؤيتك مجددًا شيئًا رائعًا يا كلير. أتخيل كم سيكون أبي مسرورًا وسعيدًا لسماعه عنك!»

ردت كلير كندري: «ألقاك يوم الثلاثاء إذن. من الآن فصاعدًا، سأقضي كل دقيقة متطلعة إلى رؤيتك ثانية. مع السلامة، يا عزيزتي رين. انقلي لأبيك حبي، وهذه القبلة من أجله».

تزحزحت الشمس عن مكانها فوق الرؤوس، لكن الشوارع لم تزل مثل أفران متقدة. كما لم يزل النسيم الواهن حارًا. وبدا الناس المهرولون أكثر ذبولاً مما كانوا عليه قبل أن تفرّ آيرين من الالتصاق بهم.

كانت وهي تعبر الشارع في الحرارة، بعيدًا عن برودة سطح الدرايتون وبعيدًا عن إغراء ابتسامة كلير كندري، تلمس في داخلها إحساسًا بالضيق من نفسها لأنها قد شعرت بالسرور والإطراء قليلاً من سعادة الأخرى البيّنة بلقائهما.

ازداد الإحساس بالضيق بسيرها المتعرق نحو البيت، وبدأت تتعجب ما الذي سيطر عليها وجعلها تَعِد بأن تجد وقتًا، في الأيام المزدحمة الباقية من زيارتها، لتقضي مساء آخر مع امرأة قد انحرفت حياتها قطعًا وعمدًا

عن حياتها هي، مع امرأة قد لا تراها مرة أخرى كما أشارت.

لماذا، بحق الله، قطعت وعدًا كهذا؟

صعدتْ درجات منزل أبيها وهي تتخيل بأي اهتمام ودهشة سيصغي إلى حكاية لقاء المساء، خطر ببالها أن كلير قد أغفلت ذكر اسم زوجها. أشارت إلى زوجها باسم جاك. هذا كل شيء. سألت آيرين نفسها، هل كان ذلك مقصودًا؟

كل ما على كلير أن ترفع السماعة لتتصل بها، أو ترسل إليها بطاقة، أو تستقل سيارة أجرة. لكنها لا تستطيع أن تصل إلى كلير بأي حال من الأحوال. مثلما لا يستطيع أي شخص قد تحدثه عن لقائهما.

«كما لو أنه علي أن أفعل!»

دار مفتاحها في القفل. دخلت. اتضح أن أباها لم يَعُد بعد.

قررت آيرين في نهاية الأمر ألا تقول له شيئًا عن كلير كندري. أخبرت نفسها أنها لا تجد في نفسها ميلاً إلى أن تتحدث عن شخص لا يقدّر ولاءها أو تعقّلها. وبكل تأكيد ليس لديها رغبة أو نية في القيام بأدنى جهد فيما يتعلق بيوم الثلاثاء، ولا أي يوم آخر في الحقيقة.

انتهت من كلير كندري.

٣

ارتفعت صباح يوم الثلاثاء قبةٌ من السماء الرمادية فوق المدينة العطشانة، لكن الضباب الفضي الذي بدا واعدًا بمطر لم يهطل لم يلطّف من الهواء الخانق.

بالنسبة لآيرين ردفيلد كان هذا الضباب المنخفض المنذر بشر سببًا آخر لئلا تقوم بشيء في سبيل لقاء كلير كندري ذلك المساء.

لكنها قابلتها.

الهاتف. ظل يرن ساعات وكأن به مسًّا. منذ الساعة التاسعة تمامًا وهي تسمع رنينه. ظلت حازمة لفترة، تقول في كل مرة بصرامة: «لستُ موجودة يا ليزا، خذي الرسالة». وفي كل مرة كانت الخادمة تعود بالمعلومة عينِها: «إنها السيدة نفسها يا سيدتي، تقول إنها ستتصل مرة ثانية».

لكن آيرين ضعفت في الظهر، وقد بليت أعصابها وآذاها ضميرها بسبب النظرة المؤنّبة على وجه ليزا الأبنوسي كلما نكصت في إنكار.

«أوه، لا عليك يا ليزا، سأجيب هذه المرة».

«إنها هي، من جديد».

«آلو؟ ... نعم».

«أنا كلير يا رين، أين كنت؟ ... هل تستطيعين أن تكوني هنا حوالي الرابعة؟ ... ماذا؟ ... لكنك وعدتِ يا رين! قليلاً من الوقت فقط ... تستطيعين لو أردت ... أشعر بخيبة أمل كبيرة. اعتمدت على رؤيتك ... أرجوك كوني لطيفة وتعالي. لدقيقة واحدة فقط. واثقة بأنك ستستطيعين لو حاولت ... لن أتوسل إليك أن تجلسي ... نعم ... سأنتظرك ... شارع مورغان ... نعم، الاسم بيلو، السيد جون بيلو ... حوالي الرابعة إذن ... سأكون مسرورة لرؤيتك! ... مع السلامة».

«اللعنة!»

وضعت آيرين سماعة الهاتف بضربة قوية، وقد فاضت أفكارها حالاً بتقريع الذات. ها هي ذي تفعلها من جديد! سمحت لكلير كندري بأن تقنعها باقتراف شيء لا وقت لديها ولا رغبة في اقترافه. ما الذي في صوت كلير ليجعله جذابًا هكذا، مغريًا جدًا؟

قابلتها كلير في الرواق بقُبلة. قالت: «كان لطفًا منك المجيء يا رين. لكنك دائمًا ما كنت لطيفة معي». وتحت تأثير ابتسامتها القوية غادر آيرين جزءٌ من انزعاجها من نفسها. بل كانت سعيدة قليلاً لأنها جاءت.

أرتها كلير الطريق، وهي تخطو بخفة، في اتجاه غرفة كان بابها مواربًا، وقالت: «لدينا مفاجأة. إنها حفلة حقيقية. انظري».

أَلْفَتْ آيرين نفسها إذ دخلت في غرفة جلوس كبيرة عالية السقف، عُلّقت دون نوافذها ستائر زرقاء مذهلة نجحت في انتزاع الانتباه من الأثاث الكئيب الشوكولاتي اللون. وكانت كلير ترتدي فستانًا لطيفًا فضفاضًا من نفس درجة الأزرق، ناسبها وناسب الغرفة إلى درجة الكمال.

ظنت آيرين لوهلة أن الغرفة خالية، غير أنها لما أدارت رأسها اكتشفت امرأة رفعت إليها تحديقة بتركيز كثيف لدرجة أن جفنيها كانا مشدودين كما لو قد شلّهما إجهادُ تلك النظرة الموجهة لأعلى. حسبتها آيرين في البدء غريبة، لكنها في اللحظة التالية قالت بصوت قاسٍ يعوزه التعاطف: «وكيف حالك يا جيرترود؟»

أومأت المرأة، واغتصبت من شفتيها العابستين ابتسامة. أجابت: «أنا بخير. وأنت كذلك يا آيرين. لم تتغيري قيد أنملة».

أجابت آيرين وهي تتخيّر مقعدها: «شكرًا». وكانت تفكر: «يا إلهي! الاثنتين».

والسبب أن جيرترود أيضًا قد تزوجت من رجل أبيض، على رغم أنه لا يمكن القول بصدق إنها كانت «عابرة». فقد كان زوجها ما اسمه؟ معها في المدرسة وكان مدركًا تمامًا، مثلما كانت عائلته وأغلب أصدقائه، أنها زنجية. علمت آيرين أن الأمر لم يبدُ مهمًا بالنسبة له آنذاك. وتعجبت: هل يهمه الآن؟ هل ندم فريد فريد مارتن، هذا اسمه هل ندم قط على زواجه بسبب عِرق جيرترود؟ هل ندمت جيرترود نفسها؟

سألت آيرين وهي تعود إلى جيرترود: «وفريد، كيف حاله؟ مرت سنوات منذ آخر مرة رأيتُه».

أجابت جيرترود باقتضاب: «أوه، إنه بخير».

ولدقيقة كاملة لم ينبس أحدٌ ببنت شفة. ثم أخيرًا جاء من بين الصمت القصير الثقيل صوتُ كلير دمثًا، على شكل محادثة: «سنتناول الشاي حالاً. أعرف أنك لن تبقي طويلاً يا رين. ويؤسفني جدًا أنك لن تري مارجري. ذهبنا إلى البحيرة في عطلة نهاية الأسبوع لرؤية بعض أصدقاء

جاك، على تخوم ميلواكي تمامًا. أرادت مارجري أن تجلس مع الصغار. ولم أجد سببًا مقنعًا بألا أدعها، خصوصًا وأن الجو حار جدًا في المدينة. لكني أتوقع أن يأتي جاك في أي لحظة».

قالت آيرين سريعًا: «جميل».

بقيت جيرترود صامتة. كان جليًّا أنها مرتبكة قليلاً. كما أن حضورها هناك أزعج آيرين، أيقظ فيها شعورًا دفاعيًا ومقيتًا لم تجد له في هذه اللحظة تفسيرًا. لكن بدا لها غريبًا أن تدعو المرأةُ التي أصبحتها كلير الآن المرأةَ التي أصبحتها جيرترود. مع ذلك، لا يمكن لكلير أن تعرف بفضل اثنتي عشرة سنة مرت منذ أن التقتا.

لاحقًا، عندما اختبرت آيرين شعورها بالانزعاج اعترفت بقليل من التردد أنه نابع من كونها غُلبت عدديًا، من شعورٍ بكونها واحدة، في تمسكها بطبقتها الاجتماعية ونوعها. ليس فقط في أمر الزواج الكبير، ولكن في أسلوب الحياة بأكمله أيضًا.

تحدثت كلير من جديد، هذه المرة بشكل مطول. كان حديثها عن التغيير الذي أحدثته فيها شيكاغو بعد غيابها الطويل في مدن أوروبية. نعم، قالت في رد على سؤال أتاها من جيرترود، عادت إلى أمريكا مرة أو مرتين، ولكنها لم تتخطّ نيويورك وفيلادلفيا، وفي إحداهما قضت أيامًا قلائل في واشنطن. جون بيلو، الذي كان على ما يبدو وكيلاً بنكيًا دوليًا، لم يشأ أن ترافقه في هذه الرحلة بصفة خاصة، لكنها حالما عرفت أنه قد يصل إلى شيكاغو قررت أن تأتي مهما كلف الأمر.

«كان لزامًا أن آتي طبعًا. وبعد أن وصلتُ هنا عقدت العزم على أن أرى من أعرفهم وأن أعرف إلامَ آلَ حالُ الجميع. لم أكن أعلم جيدًا كيف سأفعل ذلك، لكني نويتُ بطريقة ما. عندما التقيتُك مصادفة، كنت

«قررت أن أستغل الفرصة وأذهب إلى منزلك يا رين، أو أتصل بك لترتيب اجتماع. يا له من حظ!»

وافقتْ آيرين أنه الحظ. «إنها المرة الأولى التي آتي فيها إلى المنزل منذ خمس سنوات، والآن أنا على وشك أن أغادر. أسبوع وسأكون قد غادرت. ولكن كيف عثرتِ على جيرترود بالله عليك؟»

«إلى الدليل. تذكرت فريد. ما زال أبوه يدير متجر اللحوم».

قالت آيرين، التي لم تتذكر إلا بعد أن تحدثت كلير: «أوه، نعم، على شارع كوتيج غروف، بالقرب من..»

تدخلت جيرترود. «لا، انتقل. نحن الآن على جادة ميريلاند، بعد أن كنا على جاكسون. قريبًا من الشارع الثالث والستين. واسم المتجر فريد. نفس اسم أبيه».

فكرت آيرين أن جيرترود بدت كما لو أن زوجها يعمل قصّابًا. لم يبق من حسنها الغض، الذي طالما كان مثارَ إعجاب في أيام الدراسة الثانوية، أي أثر. أمست عريضة البدن، سمنت تقريبًا، وعلى رغم أنه لم تكن ثمة خطوط على وجهها الكبير الأبيض، فإن نعومته تحديدًا كانت تهرم بطريقة ما قبل أوانها. شعرها الأسود كان مقصوصًا، ولسبب بائس غادره إلى الأبد ذلك التموج المفعم بالحياة. فستانها الجورجيتي المبالَغ في زخرفته كان أقصر مما يجب، إذ كشف جزءًا مريعًا من ساقيها، ساقين بدينتين في جوربين رديئين بلون بيج يميل إلى الوردي الفاقع. يداها السمينتان طليت أظافرهما حديثًا وعلى نحو تعوزه البراعة.. لهذه المناسبة، ربما. ولم تكن تدخن.

قالت كلير، وتخيلت آيرين أن صوتها الأجش قد شُحذ قليلاً: «قبل أن

تأتي يا آيرين، كانت جيرترود تحدثني عن ابنيها. توأم. فكري في الأمر! أليس هذا رائعًا بحيث تعجز عنه الكلمات؟»

أحست آيرين بدفء يزحف إلى خديها. الطريقة التي تتكهن بها كلير بماذا يفكر شخصٌ ما خارقةٌ للعادة. كانت منزعجة قليلاً، لكن ارتياحًا تامًا بدا على هيئتها حين قالت: «جميل. أنا أيضا لدي ابنان يا جيرترود. إلا أنهما ليسا توأما. يبدو أن كلير متأخرة عنا، أليس كذلك؟»

لم تكن جيرترود متأكدة على أية حال من أن كلير حصلت على ما تريد: «لديها بنت. أردتُ بنتًا. وكذلك أراد فريد».

سألت آيرين: «أليس ذلك غريبًا بعض الشيء؟ معظم الرجال يريدون أبناء. إنها الأنانية في اعتقادي».

«أما فريد فلم يُرِد».

وُضعت أغراض الشاي على طاولة منخفضة إلى جانب كلير. منحتهما اهتمامها الآن، وهي تصب السائل الكهرماني المنعش من الإبريق الزجاجي الطويل في الأكواب الممشوقة بفخامة والتي ناولتها ضيفتيها، ثم خيّرتهما ما بين الليمون أو الكريمة، وما بين الشطائر أو الكعك.

أخبرتهما بعد أن التقطت كوبها: «لا، ليس لدي أبناء ولا أظن أنه سيكون لي أبدًا. أنا خائفة. كدت أن أموت من الهلع طوال الأشهر التسعة كلها قبل أن تولد مارجري خوفًا من أنها قد تجيء داكنة البشرة. الحمد لله، جاءت على ما يرام. لكني لن أجازف مرة أخرى. أبدًا. فالضغط جهمنيٌ أكثر من الاحتمال».

أومأت جيرترود مارتن برأسها في تفهم تام.

هذه المرة كانت آيرين هي التي لم تقل شيئًا.

قالت جيرترود بحماس: «صدقيني أنا أعرف ما تقصدين. أعلم تمامًا كيف يكون الخوف. وقد تحسبين أني لم أكن خائفة حد الموت. فريد قال إني سخيفة، وكذلك قالت أمه. لكنهما بالطبع كانا يظنان أنها مجرد فكرة سمحتُ لها بالدخول إلى رأسي ولذلك ألقيا باللوم على حالتي كحامل. لا يعرفان أنه قد يعود إلى الوراء كثيرًا فيظهر داكنًا مهما كان لون الأب أو الأم».

ظهر العرقُ خرزاتٍ على جبهتها. دارت عيناها الضيقتان أولاً في اتجاه كلير، ثم في اتجاه آيرين. عندما كانت تتكلم، كانت تلوح بيديها السمينتين في كل اتجاه.

تابعت: «لا، أنا أيضًا اكتفيت. ولا حتى بنت. كم هو بشعٌ كيف يتخطى العِرق أجيالاً، ثم يبزغ فجأة من جديد. لقد قال بالفعل إنه لا يهتم بأي لون سيجيء الطفل لو أنني أتوقف فقط عن القلق بشأنه. لكن في حقيقة الأمر لا أحد يريد طفلاً داكنًا».

كان صوتها جادًا، إذ أخذت اتفاق جمهورها التام معها على محمل الافتراض.

عندئذ قالت آيرين، التي ارتفع رأسها في ارتجاجة صغيرة، بصوت كانت فخورةً بنغماته المنتظمة: «أحدُ ابنَيّ داكن».

قفزت جيرترود كما لو كانت تستقبل رصاصة. جحظت عيناها. فغرت فاها. حاولت أن تتكلم، لكنها لم تستطع أن تخرج الكلمات منه. أخيرا نجحت في التأتأة: «أوه! وزوجك، هل هو أهل هو داكن، أيضا؟»

آيرين، التي كان تصارع سيلاً من المشاعر، امتعاضًا، وغضبًا، وازدراءً، كانت قادرة مع ذلك على الإجابة بكل برود كما لو أنها لم يراودها شعور باحتقار للرفقة التي وجدت نفسها معها تشرب الشاي المثلج من الأكواب الكهرمانية الطويلة في ذلك المساء الحار من أغسطس، أو عدم الانتماء لها. أخبرتهما بهدوء أن زوجها لم يستطع أن «يعبر» بمعنى الكلمة.

لدى تلك الإجابة أعادت كلير على آيرين ابتسامتها المغوية المُلاطِفة، وعلّقت بقليل من التهكم: «أعتقد أن الناس الملونين -نحن- سخيفون جدًا فيما يتعلق ببعض الأشياء. في نهاية الأمر، هذا الأمر ليس مهمًا بالنسبة لآيرين أو مئات الأخريات. ليس على نحو مرعب، حتى بالنسبة لك يا جيرترود. فقط الهاربون مثلي ينبغي عليهم أن يخافوا من نزوات الطبيعة. كما كان يقول أبي الغالي: «لكل شيء ثمن يجب أن يُدفع». والآن، أرجو أن تخبرني إحداكما ما الذي حدث لكلود جونز. تعرفانه؟ ذاك الطويل النحيل الذي كان يطلق ذلك الشارب الصغير المضحك الذي اعتادت البنات أن تضحكن عليه. مثل خط نحيف من السخام. أقصد الشارب».

هنالك جلجلت ضحكة جيرترود. «كلود جونز!» ثم شرعت تحكي قصة كيف لم يَعُد زنجيًا ولا مسيحيًا، بل غدا يهوديًا.

هتفت كلير: «يهوديًا!»

«نعم، يهودي. يهودي أسود، كما يدعو نفسه. لا يأكل لحم الخنزير ويرتاد المعبد كل سبت. صارت لديه الآن لحية وشارب. ستموتان من الضحك لو رأيتماه. تعجز الكلمات فعلاً عن وصف كم هو مضحك. فريد يقول إنه قد جُنّ وأخال أنه كذلك. أوه، إنه ضحكة من لحم ودم،

ضحكة عادية!» ثم جلجلت من جديد.

رنت ضحكة كلير. «يبدو مضحكًا لا شك، إلا أن هذا شأنه الخاص على أية حال. ولو وجد أنه سيعيش حياته بطريقة أفضل بتحوله إلى...»

هنا تدخلت آيرين، التي ما تزال متشبثة بشعورها الشقي اللامبالي بالصواب، قائلة بطريقة حادة: «من الواضح أنه لم يخطر لك أو لجيرترود على بالٍ أنه قد يكون مخلصًا حقا في تغيير دينه. بالطبع لا يفعل كلُّ أحد كلَّ شيء من أجل مقابل».

لم تكن كلير كندري بحاجة إلى التفتيش عن المعنى الكامل لتلك الجملة. احمر وجهها قليلاً وردت جادة: «نعم، أعترف أن هذا قد يكون ممكنًا، أقصد كونه مخلصًا. فقط لم يخطر على بالي، هذا كل ما في الأمر. لقد فاجئني»، واستحالت الجدية في صوتها سخرية «أنه كان ينبغي أن تتوقعي أنه لم يخطر على بالي. أو هل توقعتِ فعلاً؟»

أخبرتها آيرين: «متأكدة أنك لا تتخيلين أن هذا سؤال أستطيع الإجابة عليه، ليس هنا وليس الآن».

عبّر وجه جيرترود عن ذهول كامل. على أية حال، لما رأت أن ابتسامتين صغيرتين ظهرتا على وجهي المرأتين الأخريين ابتسمت هي الأخرى، دون أن تميّز الابتسامات باعتبارها تحفظاتٍ متبادلة.

بدأت كلير الكلام، منحرفة بحذر عن أي شيء قد يقود إلى الحديث عن العرق أو مواضيع أخرى شائكة. كان أبرعَ عرض تراه آيرين لرفع الأثقال الحوارية. اجتاحتها كلماتها في تيارات تامة الانسجام. ضحكاتها رنّت وجلجلت. حكاياتها الصغيرة اشتعلت.

اقتصرت مساهمةُ آيرين على مجرد «نعم» أو «لا» بين الفينة والأخرى.

أما جيرترود فكانت مساهمتها «أحقٌّ ما تقولين؟» أقل ترددًا.

ولوهلةٍ بدا وهمُ محادثةٍ عامةٍ مُحكَما تقريبًا. أحست آيرين بامتعاضها يتحول تدريجيًا إلى إعجاب حاسد.

واصلت كلير الحديث، صوتها، إيماءاتها، تلوّن كل ما قالته عن وقت الحرب في فرنسا، وعن ألمانيا ما بعد الحرب، وعن الإثارة وقت الإضراب العام في إنجلترا، وعن افتتاح صالونات الخياطة في باريس، وعن الفرح الجديد في بودابست.

بيد أن هذه البطولة اللفظية لم تستطع أن تدوم. تململت جيرترود في مقعدها وانهمكت في العبث بأصابعها. أما آيرين، إذ أضجرها في نهاية الأمر كل هذا التكرار للأشياء نفسها التي كانت قد قرأتها مرارًا في الصحف والمجلات والكتب، فخفضت كوبها وجمعت حقيبتها ومنديلها. كانت تسوي أصابع قفازيها الأسمرين تمهيدًا لارتدائهما عندما سمعت صوت الباب الخارجي يُفتح ورأت كلير تهب واقفة مع تعبير بالارتياح قائلة: «يا له من أمر رائع! هذا جاك في اللحظة المناسبة تمامًا. لا يمكن أن تذهبي الآن يا عزيزتي رين».

دخل جون بيلو الغرفة. أول شيء لاحظته آيرين عليه أنه ليس الرجل الذي رأته مع كلير كندري في سطح الدرايتون. هذا الرجل، زوج كلير، شخص يميل إلى الطول، وعريض الجسم. قدّرت عمرَه في مكانٍ ما بين الخامسة والثلاثين والأربعين. شعره بنيٌّ غامق ومتموج، وله فم ناعم، أنثوي بعض الشيء، موضوعٌ في وجهٍ عجيني اللون يبين عليه السقم. عيناه الرماديتان الغامضتان كانتا مفعمتين بالحياة وهما تتحركان دون توقف بين الجفون الغليظة المزرقة. لكن ما من شيء فيه غير عادي، قررت آيرين، إلا إنْ كان انطباعًا بقوة جسدية كامنة.

«مرحبا، زنج» كانت تحيته لكلير.

جيرترود التي جفلت قليلاً عادت لتستقر واختلست نظرة إلى آيرين التي حبست شفتها بين أسنانها وجلست محدقة في الزوج والزوجة. كان عصيًا على التصديق أن حتى كلير كندري ستسمح بهذا التهكم على عرقها يتفوه به شخص من عرق آخر، حتى وإن صادف أنه زوجها. لقد عرف إذن أن كلير كانت زنجية؟ من حديثها قبل يومين فهمت آيرين أنه لم يعرف. لكن يا له من شيء وقح، يا له من شيء مُهين، أن يخاطبها بتلك الطريقة في حضرة ضيوف!

كان في عيني كلير، لمّا قدّمت زوجها، بريقٌ غريب، بريقٌ ساخر ربما. لم تستطع آيرين تحديد ماهيّته.

سألت بانتهاء التعبيرات الآلية التي عادة ما تصاحب طقس التقديم: «هل سمعتما بمَ ناداني جاك؟»

«نعم،» أجابت جيرترود، ضاحكة بحماسةٍ يمليها الإحساس بالواجب.

رفرفت العينان السوداوان: «أخبرهما يا عزيزي لماذا تسميني هكذا».

ضحك الرجل ضحكة مكتومة فتغضنت عيناه على نحو محبب، كما وجدت آيرين نفسها مضطرة إلى الاعتراف. أوضح: «حسنًا، في البدء عندما تزوجنا كانت بيضاء مثل.. مثل.. مثل زنبقة. لكن يظهر لي أنها آخذة في الدكنة تدريجيًا. أخبرتها أنها إنْ لم تتنبّه لنفسها سوف تصحو يومًا وتجد نفسها وقد تحولت إلى زنجية».

زأر ضاحكًا. انضمت إلى زئيره ضحكةُ كلير الشبيهة برنين جرس. وبعد حركة أخرى مضطربة في مقعدها أضافت جيرترود ضحكتها الصاخبة. آيرين، التي كانت تجلس بشفتين مزمومتين بإحكام صرخت

هاتفة: «هذا جيد!» ثم أتاحت المجال لنوبات من الضحك. ضحكت ثم ضحكت ثم ضحكت. سالت دموعٌ على خديها. آلمتها خاصرتاها. آلمها حلقها. ضحكت مرارًا وتكرارًا، ضحكت طويلاً حتى بعد أن هدأ الآخرون. حتى دهمتها الحاجة إلى استمتاع أهدأ بهذه المزحة التي لا تقدر بثمن وإلى أخذ الحذر، وقد حانت منها لمحةٍ لوجه كلير. وفجأة توقفت.

ناولت كلير زوجها الشاي ووضعت كفها على ذراعه مع إشارة حنونة. قالت، وهي تتحدث عن ثقة وعن لهو أيضا: «يا إلهي يا جاك، أي فرقٍ سيحدث لو اكتشفتَ بعد كل هذه السنين أني ملونة بنسبة واحد أو اثنين في المئة؟»

لوح بيلو بيده في اندفاع رافض، حازم ونهائي. أعلن: «أوه، لا، يا زنج. لا أقبل هذا البتة. أعرف أنك لست زنجية، ولذلك فإن كل شيء على ما يرام. تستطيعين أن تكوني داكنة كما تريدين في رأيي، لأني أعرف أنك لست زنجية. هذا هو الأمر الوحيد الذي يستحيل أن أقبل به. لا زنوج في عائلتي. لم يحدث ولن يحدث أبدًا».

ارتعشت شفتا آيرين على نحو خارج عن السيطرة، لكنها بذلت جهدًا يائسًا في ردع رغبتها الكارثية في أن تضحك، ونجحت. رمقت، وهي تنتقي بعنايةٍ سيجارةً من العلبة المطلية على طاولة الشاي أمامها، كلير بنظرة غامضة والتقت بعينيها المميزتين المثبتتين على وجهها في تعبير موغل في الحزن والعمق والإبهام، لدرجة أنِ اعتراها لفترة قصيرة إحساسٌ بأنها تحدق في عينَي كائن غريب ومنفصل تمامًا. مسها إحساس خافت بالخطر، مثل نفحة من ضباب بارد. إحساس عبثي، كما أملى عليها عقلها وهي تستقبل من بيلو ولاعة من أجل سيجارتها. لمحة أخرى أظهرت كلير تبتسم. كذلك كانت جيرترود مبتسمة، مثل

شخص مستعد دائمًا لأن يمتثل.

سيظن لو شاهدهم أحد أنها حفلة شاي متجانسة تمامًا، كلها ابتسامات ونكات وجذل صاخب. قالت بخفة دم: «إذن أنت تنفر من الزنوج يا سيد بيلو؟» لكن متعتها كانت في فكرتها بدلاً من أن تكون في كلماتها.

ضحك جون بيلو ضحكة قصيرة مُنكِرة: «فهمتِني خطأ هنا يا سيدة ردفيلد. لا شيء من هذا إطلاقًا. أنا لا أنفر منهم، أنا أكرههم. وكذلك تكرههم زنج، لأنها قد تتحول إلى واحدة منهم. لم تكن لتتخذ خادمة زنجية تحت أية ظرف إطلاقًا. ولا أريدها أن تفعل ذلك. إنهم يثيرون اشمئزازي. الشياطين السود القذرة».

لم يكن هذا مضحكًا. تساءلت آيرين، هل عرف بيلو أية زنوج قط؟ النبرة الدفاعية لصوتها جلبت جفلة أخرى من جيرترود المنزعجة ونظرة قلقة خاطفة من كلير على رغم مظهر الصفاء الذي بدت عليه.

أجاب بيلو: «لا، والحمد لله. ولا أتوقع أن أعرف أبدًا. ولكني أعرف أناسًا عرفوهم أكثر مما يعرف السود أنفسهم. وأقرأ في الصحف عنهم. دائمًا يسرقون الناس ويقتلونهم». ثم أضاف بحزن: «وأسوأ من ذلك».

من جهة جيرترود أتى صوتٌ غريب مكبوت، شخير أو ضحكة. لم يكن بمقدور آيرين أن تحدد أيهما. كان ثمة صمت قصير خشيت خلاله أن تنكشف سيطرتها على نفسها باعتبارها جسرًا أوهى بكثير من أن يدعم غضبها وسخطها المتصاعدَين. كانت لديها رغبة واثبة لأن تصيح بالرجل الذي بجوارها: «وها أنت جالس هنا، محاطٌ بثلاثة شياطين سود، وتشرب الشاي معهن».

مر الدافع، وطمسه وعيُها بالخطر الذي سيعرّض له هذا التهور كليرَ،

التي علّقت بدورها في توبيخ مهذب: «جاك يا عزيزي، أنا على يقين بأن رين لا تكترث لسماع أي شيء عن مسببات نفورك. ولا حتى جيرترود. لعلها تقرآن الصحف أيضًا، كما تعلم». ابتسمت له، وبدا أن ابتسامتها تبدّل حاله، تلطفه وتلينه، كما تفعل أشعة الشمس بفاكهة.

اعتذر: «حسنٌ يا زنج يا فتاتي الكبيرة. أنا آسف». مدّ جذعه ليمسّ يدَي زوجته الشاحبتين، ثم التفت إلى آيرين وقال بخجل: «لم أقصد أن أضجرك يا سيدة ردفيلد. آمل أن تصفحي عني. أخبرتني كلير أنك تعيشين في نيويورك. مدينة عظيمة، نيويورك. مدينة المستقبل».

داخل آيرين لم ينحسر الغضب، بل حبسه جسرُ الحذر والولاء لكلير. ولهذا وافقت بيلو على قوله، بعد أن حشدت لصوتها أقصى ما تستطيع من عفوية. مع ذلك، ذكّرته بأن هذا تحديدًا ما هو حريٌّ بأهل شيكاغو أن يقولوه عن مدينتهم. وطوال حديثها كانت تفكر في كم هو رائع أن صوتها لم يرتعش وأنها ظاهريًا بدت رابطة الجأش. فقط يداها كانتا تنتفضان قليلاً. سحبتهما من حيث تستندان في حجرها ثم ضمت أناملها إلى بعضها كيما تسكن.

«زوجك طبيب كما عرفت. في مانهاتن، أو واحدة من تلك المناطق الأخرى؟»

مانهاتن، أخبرته آيرين، وشرحت حاجةَ براين لأن يكون قريبًا حيث الوصولُ إلى مستشفيات وعيادات معينة يسيرٌ.

«حياة ممتعة، حياة الطبيب».

«نع..عم. شاقة، مع ذلك. ورتيبة بطريقة ما. مرهقة للأعصاب أيضًا».

«شاقة على أعصاب الزوجة على الأقل، ها؟ كثير من المريضات».

وضحك مستمتعًا بالنكتة البالية، بحماسة صبيانية.

أدارت آيرين على ابتسامة لحظية، لكن صوتها كان رصينًا عندما قالت: «براين لا يهتم بالنساء، خصوصًا المرضى منهن. أحيانًا أودّ لو يهتم حقًا. إلها تجذبه أمريكا الجنوبية».

«مكان واعد، أمريكا الجنوبية، لو يخلّصونها من الزنوج. أغرقوها..»

«أحقًا يا جاك!» كان صوت كلير على وشك أن يفقد رشده.

«نسيت والله، يا زنج». وقال للأخريين: «تريان كيف تسيطر عليّ». ثم لجيرترود: «أنت لا تزالين في شيكاغو، سيدة.. امم.. سيدة مارتن؟»

كان واضحًا أنه يبذل جهده ليكون مقبولاً لدى صديقتي كلير القديمتين هاتين. اعترفت آيرين لنفسها أنه كان من الممكن أن تعجب به في ظروف أخرى. رجل حسن المظهر وميسور الحال وذو مزاج لطيف على ما يبدو. فضلاً عن أنه صريح ومبتعد عن سفاسف الأمور.

أجابت جيرترود بأن شيكاغو ملائمة لها بما فيه الكفاية. لم تخرج قط منها ولا تعتقد أن عليها أن تفعل. وفيها عمل زوجها.

«بالطبع، بالطبع. لا يمكنه أن ينتقل هكذا ويترك عملاً».

تلا ذلك حديث خفيف عن شيكاغو ونيويورك، اختلافهما والتغيرات المبهرة التي لحقت بهما مؤخرًا.

فكرت آيرين، إنه لأمر غير قابل للتصديق ومدهش أن يجلس أربعة أشخاص بهدوء كبير، يظهر عليهم أن الودّ جامعهم، بينما هم في الواقع يشتاطون غضبًا وذلًا وخزيًا. لكن لا، في لحظة أخرى من التفكير اضطرت أن تَعدِل عن رأيها. فقد كان جون بيلو، مما لا شك فيه،

مطمئنًا من الباطن بقدر ما هو مطمئن من الظاهر. وربما كانت كذلك جيرترود مارتن. على الأقل لم يكن لديها الذل والخزي اللذان لا بدّ أن كلير كندري كانت تشعر بهما، ولا الغيظ والحنق اللذان كانت آيرين نفسها تكظمهما.

عرضت كلير: «مزيدًا من الشاي يا رين؟»

«أشكرك، لا. عليّ أن أذهب. مسافرة غدًا، كما تعلمين، ولا زال أمامي توضيب الحقائب».

قامت. وكذلك فعلت جيرترود وكلير، ثم جون بيلو.

سأل الأخير: «كيف وجدتِ الدرايتون يا سيدة ردفيلد؟»

«الدرايتون؟ أوه، إنه جميل. جميل جدًا». أجابت آيرين، وعيناها ترسلان إلى وجه كلير الجامد احتقارًا.

أخبرها الرجل: «مكان لطيف بالفعل. أقمتُ فيه شخصيًا مرة أو مرتين».

وافقت آيرين: «نعم، إنه لطيف. تقريبًا بنفس جمال أفضل الأماكن في نيويورك.» سحبت نظرتها عن كلير وأخذت تفتش في حقيبتها عن شيء لا وجود له. ازداد فهمها بسرعة، كما حدث مع شفقتها واحتقارها. كانت كلير جسورة جدًا، وفاتنة جدًا، و«متملكة» جدًا.

مدت الاثنتان يديها إلى كلير بتمتمات مناسبة. «كان جميلا جدًا أن رأيناك» ... «آمل أن أراك مرة أخرى قريبًا».

ردت كلير: «مع السلامة. كان جميلاً أن أتيتِ يا عزيزتي رين، وأنت أيضًا يا جيرترود».

«مع السلامة، سيد بيلو» ... «سعيدة بمقابلتك». كانت جيرترود مَن قال هذا. لم تستطع آيرين، لم تستطع أبدًا، أن تقنع نفسها بنطق الكذبة المهذبة أو أي شيء قريب منها.

رافقهما خارج الغرفة إلى الرواق ثم طلب لهما المصعد.

«مع السلامة». قالتا مرة أخرى إذ صعدتا.

خيم عليهما الوجوم وهما تهبطان.

اتخذتا طريقهما عبر البهو دون أن تتفوها بكلمة.

لكن حالما بلغا الشارع انفجرت جيرترود، على طريقة مَن لا تقوى على إبقاء ما جاهدتْ على إمساكه خلال الساعة الفائتة مغلقًا دقيقة أخرى: «يا إلهي! يا لها من صدفة مرعبة! لا بد أنها مجنونة حقًا».

اعترفت آيرين: «نعم، لا شك أنها تبدو مجازفة».

«مجازفة! هذا أقل ما يُقال عنها. مجازفة! يا إلهي! يا لها من كلمة! والفوضى التي تجعل من نفسها عرضة للتورط فيها!»

«أتصور أنها لا تزال في قدر من الأمان لا بأس به. فهما لا يعيشان هنا كما تعلمين. ولديهما طفلة. هذا ضمان مؤكد».

أصرت جيرترود: «إنها صدفة مرعبة، مهما كان. لم أكن لأتزوج فريد أبدًا لو لم يكن على علم. لا تعلمين ما الذي يظهر مع الأيام».

«نعم، أوافقك الرأي أنه كان من الآمن أن تخبره. ولكن حينها لم يكن ليتزوجها. ثم إن هذا ما أرادته في نهاية الأمر».

هزت جيرترود رأسها. «لا أحبذ أن أكون مكانها عندما يكتشف

الحقيقة، حتى وإنْ أُعطيتُ كل المال الذي تحصل عليه. خصوصًا وهو يشعر بالطريقة التي يشعر بها. أووف! ألم يكن فظيعًا؟ في لحظة كنت غاضبة جدًا لدرجة كان من الممكن أن أصفعه».

لقد كانت، باعتراف آيرين، تجربة عصيبة بامتياز، كما لم تكن سارة إطلاقًا. «حتى أنا، كنت أكثر من مجرد غاضبة».

«وتخيلي أنها لم تخبرنا أنه يفكر بتلك الطريقة! كان يمكن أن يحصل أي شيء. كان يمكن أن نقول شيئًا».

هكذا هي كلير كندري، أشارت آيرين. تستغل الفرصة، دون أدنى اعتبار لمشاعر أي شخص آخر.

قالت جيرترود: «ربما تكون ظنت أننا سنحسبها مزحة كبيرة. وأخال أنك حسبتها كذلك. الطريقة التي ضحكت بها. يا الله! كنت خائفة حد الموت من أنه قد يفهم».

أخبرتها آيرين: «حسنًا، لقد كانت بالفعل مزحة. بالنسبة له، ولنا، وربما لها».

«أيا يكن، فإنها مخاطرة مريعة، وسأكره أن أكون مكانها».

«تبدو في غاية الرضى. حصلت على ما تشتهي، وقبل يومين أخبرتني أن الأمر يستحق».

غير أن جيرترود ساورها الشك بهذا الخصوص. كانت ترى أنها «ستكتشف أنها مخطئة تمامًا».

بدأ المطر في الهطول، قطراته الكبيرة قليلة ومتفرقة.

هرول حشودُ آخر النهار في اتجاه الترامات والطرق المعلّقة.

قالت آيرين: «أنت متجهة جنوبًا؟ آسفة، لديّ مشوار. سنفترق هنا إن لم تمانعي. كان رائعًا أن رأيتك يا جيرترود. بلّغي فريد سلامي، وأمك إن كانت لا تزال تتذكرني. مع السلامة».

أرادت أن تتخلص من المرأة الأخرى، أن تكون بمفردها، لأنها ما زالت متأثرة وغاضبة.

ظلت تسأل نفسها، بأي حق تُقْدِم كلير كندري على تعريضها، أو حتى جيرترود مارتن، لمثل هذا الإذلال، لمثل هذه الإهانة الفجة؟

وطوال طريق عودتها السريعة إلى منزل أبيها، كانت آيرين ردفيلد تحاول استيعاب النظرة على وجه كلير وهي تودعها. بدت أنها نصف هازئة ونصف مخيفة. بالإضافة إلى شيء آخر لم تفلح في إيجاد اسم له. وللحظة عاودها ذلك الإحساس بالخوف الذي اعتراها أثناء النظر في عيني كلير ذلك المساء، ولمسها. دبت في جسدها قشعريرة صغيرة.

حدثت نفسها. «لا شيء. سوى أن أحدهم مشى فوق قبري، كما يردد الأطفال». اغتصبت ضحكةً صغيرةً وأزعجها أنها كانت أقرب إلى البكاء منها إلى الضحك.

يا لها من حالةٍ سمحت لبيلو الفظيع ذاك أن يضعها فيها!

لاحقًا تلك الليلة، وبعد أن غادر آخرُ ضيف بوقت طويل وأمسى المنزل القديم هادئًا، وقفت أمام نافذتها عابسة في وجه المطر المعتم تحاول فكّ لغز تلك النظرة على وجه كلير الجميل بشكل لا يصدق. ومع ذلك لم تصل إلى أي استنتاج بشأن معناها مهما حاولت جاهدة. كانت نظرةً متعذرة على الفهم، أبعد من أي تجربة أو إدراك خبرتْه.

ابتعدت أخيرًا عن النافذة، وإن أمسى عبوسها أعمق. لِمَ كل هذا القلق بشأن كلير كندري على أية حال؟ كانت قادرة بما يكفي على الاهتمام بنفسها، كانت دائمًا كذلك. كما أن لدى آيرين أشياء أخرى، أكثرَ شخصية وتستحق منها اهتمامًا أكثر.

إلى جانب ذلك، أخبرها عقلها أنه لا يجب أن تلوم غير نفسها على مسائها الكريه والمخاوف والأسئلة التي صاحبته. ما كان يجدر بها إطلاقًا أن تذهب.

٤

جاء صباح اليوم التالي، يوم مغادرتها إلى نيويورك، برسالة ميزت آيرين بغريزتها من أول لمحة أنها من كلير كندري، على رغم أنها لا تتذكر أبدًا أنها استقبلت منها رسالة قبل اليوم. وجدت، إذ شقت ظرفها ونظرت إلى التوقيع، أنها كانت صائبة في تخمينها. قالت لنفسها إنها لن تقرأها. لم يكن لديها وقت. كما لا تحب أن يُذكّرها بمساء الأمس شيءٌ. وكما كان الحال لم تشعر بجاهزيتها للرحلة، لأنها قضت ليلة رهيبة. كل ذلك بسبب عوز كلير الفطري لتقدير مشاعر الآخرين.

لكنها قرأتها. بعد أن ألقى أبوها والأصدقاء تحيات الوداع، وأخذها القطار ناحية الشرق، استحوذ عليها فضولٌ عصي على الترويض عن رؤية ما قالت كلير بخصوص ليلة أمس. لأنها كانت تتساءل، إذ أخرجتها من حقيبتها، عما بوسع كلير، عما بوسع أي أحد، قوله عن شيء مثل تلك الليلة.

قالت كلير كندري:

> رين يا عزيزتي كيف لي أن أشكرك على زيارتك؟ أعرف أنك تشعرين أنه في هذه الظروف ما كان ينبغي لي أن أدعوك للمجيء، أو بالأحرى الإلحاح عليك بالمجيء.

لكن لو كان بإمكانك معرفة كم كنت سعيدة، ومسرورة بحماس، بلقائك وكيف تُقتُ لأن أراك أكثر (لأن أرى الجميع ولا أستطيع)، لتفهمت رغبتي في رؤيتك مرة أخرى، ولربما سامحتني قليلاً.

لك حبي دائمًا وأبدًا، ولأبيك العزيز. عاجزة عن شكرك.

كلير

ثم كانت هنالك ملاحظة لاحقة تقول:

قد يكون، يا عزيزتي رين، قد يكون الطريق الذي اتخذته أكثر الطرق حصافة وأسعدها على الإطلاق. لستُ متأكدة الآن. على الأقل لستُ متأكدة بالقدر الذي كنتُه فيما مضى.

ك

لكن الرسالة لم تسترضِ آيرين. ولم تخفف من نقمتها إشارةُ كلير المطرية إلى حصافتها. فكرت بحنق، كما لو كان باستطاعة أي شيء أن يُذهب الذل، الذي تعرضت له مساء البارحة من أجل كلير كندري، كله أو بعضًا منه.

وبمنهجية غير معهودة قطعت الرسالة المسيئة إلى مزقٍ مربعة صغيرة نزلت مرفرفةً صانعةً كومة هشة في حضن فستانها الكريـپ الأسود. بانتهاء التمزيق جمعتها وقامت ثم مشت إلى مؤخرة القطار. وإذ وقفت

هناك، نثرتها على السكة الحديدية وراقبتها تتطاير، على السكة، وعلى السخام، وعلى العشب المهجور، وفي غدران الماء الآسن.

بهذا انتهى كل شيء، حدثت نفسها. أضحت فرصة أن تقع عيناها على كلير كندري مرة أخرى تعادل واحدًا في المليون. لو حدث وأن ظهرت تلك الفرصة الجزء من المليون، وبأية طريقة، فستكتفي بإشاحة عينيها فقط، ستنكر معرفتها.

أسقطت كلير من ذهنها وتوجهت بأفكارها إلى شؤونها الخاصة. إلى البيت، إلى الولدين، إلى براين. براين، الذي سيكون في الصباح بانتظارها في المحطة الضخمة الصاخبة. تمنّت أن يكون قد ارتاح وألا يكون قد شعر بالوحدة في ظل غيابها وغياب الولدين. ألا يكون قد شعر بالوحدة لدرجة أن يعاوده من جديد ذلك الضجر العتيق والشاذ والبائس، ذلك التوق إلى مكان غريب ومختلف، الذي اضطرت في بداية الزواج أن تبذل جهودًا شاقة من أجل كبحه، والذي يثير ذعرها وإن كان بشكل واهن، على رغم أنه أصبح يزورها على فترات آخذة في التباعد.

الجزء الثاني

المواجهة من جديد

١

كذلك كانت ذكريات آيرين ردفيلد إذ جلست هناك في غرفتها، يشع عليها سيل من ضوء الشمس، ممسكة برسالة كلير كندري الثانية تلك.

وضعتها جانبًا، وانتبهت باندهاش فيه درجة لطيفة من التسلية إلى عنف المشاعر التي حركتها الرسالة في داخلها.

لم يكن ما فاجأها وسلّاها قليلاً ذلك القدر الكبير من الغضب. كانت متأكدة أنه أمر مبرر ومعقول، مثلما كانت حقيقةُ كونه قادرًا على الصمود، قويًا وغير منحسر، طوال عامين من الزمن وعلى مبعدة تامة من مرأى ومسمع جون بيلو، أو كلير. لم يبدُ لها استثنائيًا أنه ما زال لذكرى كلمات الرجل وأسلوبه، حتى في هذا التاريخ البعيد، قدرةٌ على جعل يديها ترتجفان وإرسال الدم واثبًا إلى صدغيها. لكن أن تستبقي ذلك الشعور المبهم بالخوف والذعر فهذا أمرٌ مدهش، بل سخيف.

لم يفاجئها أن تكتب كلير لها، أن تعبر عن رغبةٍ في رؤيتها مرة ثانية، على رغم كل شيء. فكونها لا تلقي بالاً للمضايقات، ولا للمرارة، ولا

لمعاناة الآخرين، ذاك هو ديدنُ كلير.

حسنا –رفعت آيرين كتفيها– شيء واحد كان أكيدًا: أنها ليست بحاجة إلى، ولا تنوي، أن تعرّي نفسها أمام أي تكرار لإهانةٍ شائنة وصارخة مثل تلك التي تعرضت لها «تلك المرة في شيكاغو» من أجل كلير كندري. مرة واحدة تكفي.

لو لم تقدّر كليرُ الثمن بدقة، في وقت الاختيار، لما كان معها حقٌّ في أن تتوقع من الآخرين مساعدتها في تقديره. مشكلة كلير أنها لا تريد أن تملك كعكتها وتأكلها فحسب، ولكنها تريد أن تقضم من كعكات الآخرين أيضًا.

وجدت آيرين ردفيلد أن من الصعب التعاطف مع هذا اللطف الجديد، الذي هو شوق كلير المعلَن «لأهلي وناسي».

كانت الرسالة التي أبعدتها للتو من يدها، في تقديرها، مسرفةً في إطنابها، مفرطةً بلا تحفظ في صراحة أسلوب تعبيرها. لقد أثارت من جديد ذلك الشك القديم أن كلير إنما كانت تمثّل دون وعي منها، أو بالأصح دون وعي كامل منها، لكنها على أية حال تمثل. ولم يكن لدى آيرين ميلٌ إلى أن تعذر ما أسمتْه أنانيةَ كلير الصريحة.

ثم اختلط بإنكارها وامتعاضها شعورٌ آخر، سؤال. لماذا لم تتكلم هي ذلك اليوم؟ لماذا أَخْفَتْ عِرقها وأصلها أمام كراهية بيلو وحقده الجاهل؟ لماذا أتاحت له أن يمرر توكيداته ويعبر عن مغالطاته دون نزاع؟ لماذا تخلّت، فقط من أجل كلير كندري التي عرضتها لذاك العذاب، عن الدفاع عن عرقها الذي تنتمي إليه؟

سألت آيرين هذه الأسئلة، أحست بها. مع ذلك، كانت مجرد أسئلة

الأريبة، كما كانت تعي ذلك جيدًا. كانت تعرف أجوبتها كلها، وكانت إجابة كل سؤال هي نفسها إجابة باقي الأسئلة. يا للسخرية! لم تستطع أن تخُن كلير، لم تستطع أن تجازف بالظهور مدافعةً عن أناس يُهانون، لخشية أن قد يقود الدفاع ولو بدرجة متناهية الصغر إلى الكشف أخيرًا عن سرها. إنها تحمل مسؤولية تجاه كلير كندري، فهي مربوطة بها عبر تلك الأواصر العرقية ذاتها، والتي لم يكن بمقدور كلير، على رغم كل تنصّلها منها، أن تقطعها تمامًا.

ولم يكن ذلك، في تقدير آيرين، بسبب أن كلير تكترث للعرق أو ما يتعلق به أدنى اكتراث. بالعكس، لم تكن تهتم. ولم يكن بسبب أنها تُكنّ لأي شخص ينتمي إليه مودة كبيرة، أو حقيقية حتى، على رغم أنها اعترفت بامتنان أبدي للّطف الذي أبدته معها عائلة ويستوفر يوم أن كانت طفلة. شككت آيرين في أصالة الامتنان إذ رأت نفسها، حين يتعلق الأمر بكلير، مجرد وسيلة في سبيل غاية. ولا يمكن القول إن لديها مقدار ذرة من الاهتمام الفني أو السوسيولوجي في العرق مثلما لدى بعض أفراد الأعراق الأخرى. لم تكن هذه الحالة معها. لا، لم تكن كلير كندري تهتم بأمر العرق تمامًا. إنما كانت تنتمي له وكفى.

«لا لشيء لعين آخر!» صرخت آيرين عاليًا وهي تسحب جوربًا رقيقًا فوق قدمٍ شاحبة بلون بنّي فاتح.

«آها! تلعنين من جديد، صحيح يا مدام؟ قبضت عليك بالجُرم في الوقت المناسب».

كان بارين ردفيلد قد دلف إلى الغرفة بتلك الطريقة الصامتة التي ما زالت، على رغم سنين حياتهما سويًا، قادرة على إرباكها. وقف مرسلاً بصره إلى الأسفل باتجاهها بابتسامته المسلية المعهودة التي كانت

متغطرسة بعض الشيء ومناسبة جدًا له على نحوٍ ما.

سحبت آيرين على عجالةٍ الجوربَ الآخر ودسّت قدميها في حذاء كان بجانب كرسيّها.

«وما الذي دفعك إلى هذا الهيجان التجديفي تحديدًا؟ أعني، إنْ كان من حق زوج متسامح ولكن قلقٌ أن يسأل. وأمّاً لولدين أيضا! الزمن، واحسرتاه، الزمن!»

أخبرته آيرين: «تلقيت هذه الرسالة، وأنا على يقين من أن أي أحد سيعترف بأنها كافية إلى دفع قديس إلى اللعن. يا لوقاحتها!»

مررت إليه الرسالة، وأثناء ذلك تجهّم ذهنها قليلاً. لأنها رأت، بدقةِ ملاحظة، أنها أعطته الرسالة بدلاً من الإجابة على سؤاله بالكلمات، بحيث ينشغل بينما ترتدي على عجلٍ ملابسها. لأنها كانت متأخرة مرة أخرى، وبراين يمقت هذا كما تعلم جيدًا. لماذا، أوه لماذا، لا تستطيع أبدًا أن تحافظ على الوقت؟ استيقظ براين منذ دهر، وأجرى بعض المكالمات، إضافة إلى أنه أخذ الأطفال إلى المدرسة وسط المدينة. وهي لم تلبس بعد؛ للتو بدأت. اللعنة على كلير! هذا الصباح كان خطأها.

جلس براين وحنى رأسه فوق الرسالة، مغضنًا حواجبه قليلا في جهدٍ لفهم خط كلير الرديء.

مررت آيرين، التي كانت قد نهضت وتقف الآن أمام المرأة، مشطًا عبر شعرها الأسود، ثم رمت رأسها في إيماءة خفيفة ومميزة، من أجل أن تفرّق الخصلات المتلاصقة قليلاً. ذرّت مسحوقًا على بشرتها الدافئة الزيتونية ثم ارتدت فستانها بحركة مستعجلة جدًا لدرجة أنها عدلته على قوامها بصعوبة. أخيرًا كانت جاهزة، على رغم أنها لم تقل ذلك،

بل وقفت تنظر إلى زوجها في الجانب الآخر من الغرفة بانفصال غريب.

فكرت أن براين وسيمٌ إلى حد كبير. ليس بالطبع جميلاً أو متأنقًا؛ فاعوجاج أنفه الطفيف أنقذه من أن يكون جميلاً، والضخامة الواضحة لذقنه أنقذته من أن يكون متأنقًا. لكنه كان في المقابل وسيمًا، على نحو ذكوري ساحر. مع ذلك، لم يكن ليبدو هكذا لولا غِنى بشرته وجمالها، والتي كان لها ملمسٌ ناعم بشكل ساحر ولونٌ نحاسي راسخ.

رفع بصره وقال: «كلير؟ لا بد أنها الفتاة التي أخبرتِني عن لقائك بها في آخر زيارة لك لبيت أبيك. التي شربتِ معها الشاي؟»

اتخذت إجابةُ آيرين على هذا السؤال شكلَ انحناءةِ رأس.

قالت: «أنا جاهزة».

كانا هابطين إلى الطابق الأرضي، يقودها براين بمهارة، ومن غير حاجة، على التفاف الدرجتين القصيرتين المقوّستين، اللتين تسبقان المهبط في المنتصف، عندما سأل: «ألن تقابليها؟»

لم تكن كلماته في الواقع سؤالاً، بل كانت، كما تنبّهت آيرين، عتابًا.

تلامست أسنانها الأمامية، فتحدثت من بينها، وحملت نبرتُها سخريةً رقيقة. «براين، يا حبيبي، لستُ في الحقيقة حمقاء بحيث لا أدرك أنه إذا دعاني رجلٌ زنجية، فإنها في المرة الأولى خطؤه، وإما إن أتيحت له الفرصةُ ليقولها ثانية فإنها خطئي».

دخلا غرفة الطعام. سحب كرسيها فجلست خلف إبريق القهوة الألماني السمين الذي أرسل في المكان عبيره الصباحي ممزوجًا برائحة التوست الهش ولحم الخنزير المقدد اللذيذ. التقط بأصابعه الطويلة القلقة جريدة

الصباح من فوق كرسيه وجلس.

أحضرت زولينا، المخلوقة الصغيرة بلون الماهوجني، ثمارَ الجريب فروت.

التقطا ملعقتيهما.

في منتصف الصمت نطق براين. بتملق. قال مصححًا: «عزيزتي، لقد أسأتِ فهمي تمامًا. ما قصدته ببساطة هو أني آمل أنك لن تدَعيها تزعجك. تعلمين أنها ستفعل لو أعطيتِها نصف فرصة وكانت مثل وصفك لها بالضبط. على أية حال، هذا ديدنهم، كما أن الرجل، زوجها، لم يَدْعُكِ زنجية. هناك فرق، كما تعلمين».

«لا، بالطبع لم يدعُني. ليس تمامًا. لم يستطع تمامًا لأنه لم يكن يعلم، لكنه كان سيفعل. وهذا يقود إلى الشيء نفسه. وأنا متأكدة بأن الأمر سيكون بالبشاعة نفسها».

أشار: «امم، لا أدري. لكن ما يبدو لي يا عزيزتي أن الأفضلية كانت إلى جانبك. لقد عرفتِ رأيه عنك، بينما هو لم يعرف. حسنًا، نعلم أنهم دائما لا يعرفون. ليس تمامًا. للأمر جانبه الظريف، عليك أن تقرّي بهذا، بل أحيانًا له ميزات».

صبّت القهوة.

«لا أرى ذلك. سأكتب لكلير. اليوم، لو وجدتُ وقتًا. هذا أمرٌ علينا تسويته أيضًا، وفوراً. مما يثير الفضول حقًا أنها وهي تعلم عن موقفه الحاسم ما تزال...»

قاطعها براين: «الأمر يسير دائمًا على هذا النحو. ولا أتذكر أنه اختلف

قط. تتذكرين آلبرت هاموند، كيف كان يذرع الجادة السابعة وجادة لينوكس ويرتاد المراقص حتى أطلق عليه «أسودٌ» رصاصة لأنه نظر إلى «سبأه»؟ إنهم دائما ما يعودون. رأيت هذا يحدث مرة تلو مرة».

«لكن لماذا؟ لماذا؟» أرادت آيرين أن تعرف.

«لو عرفتُ السبب، لعرفت ما هو العِرق».

«ولكن ألا تعتقد أنهم بحصولهم على الشيء، أو الأشياء، التي سعوا في سبيلها، وبتلك المجازفة، سيقنعون؟ أم سيكونون خائفين؟»

اتفق معها براين: «بلى، يمكن الاعتقاد بهذا. ولكن، تظل الحقيقة، أنهم ليسوا كذلك. ليسوا قانعين، أعني. أظن أنهم خائفون بما يكفي أغلب الوقت، عندما يستجيبون للرغبة ثم يعودون سريعًا. ومع ذلك ليسوا خائفين بما يكفي لأن يتوقفوا. لماذا؟ الله وحده يعلم».

انحنت آيرين إلى الأمام، متحدثة، وهي تدرك هذا، بحدة لا لزوم لها إطلاقًا لكنها لا تستطيع التحكم بها.

«حسنًا، أما كلير فعليها أن تستثنيني من هذا. لا نيّة لدي في أن أكون حلقةَ وصل بينها وبين إخوتها المساكين الأكثر دكنة. وبعد ذلك الموقف في شيكاغو! أن تتوقع مني بكل برود...» توقفت فجأة، وقد عجزت الكلمات أن تعبر عن غيظها.

«أنت محقة تمامًا. الشيء المنطقي الوحيد الذي يمكن فعله. دعيها تفتقدك. هذه علاقة مُعتلّة، العلاقة برمّتها، دائمًا كانت معتلة».

هزت آيرين رأسها، وعرضت: «مزيدًا من القهوة؟»

«أشكرك، لا». أخذ الجريدة من جديد، وفتحها بقليل من الخشخشة

الصاخبة.

دخلت زولينا جالبة مزيدًا من التوست. أخذ براين قطعة وقضمها بصوت المضغ المسموع ذاك الذي تكرهه آيرين بشدة، ثم عاد إلى جريدته.

قالت: «مضحكٌ أمر «العبور». نستهجنه في نفس الوقت الذي نتغاضى عنه فيه. يثير ازدراءنا ومع ذلك ننظر إليه بإعجاب. نخجل منه مع نوع غريب من الاشمئزاز، لكننا نصونه».

«إنها غريزة العِرق للبقاء والتمدد».

«هراء. لا يمكن أن نعلل كل شيء بعبارات بيولوجية عامة».

«بل يمكن بكل تأكيد. انظري إلى من يسمون أنفسهم البيض، الذين خلّفوا وراءهم أبناء زنا في كل أنحاء الأرض. الشيء نفسه ينطبق عليهم. غريزة العرق للبقاء والتمدد».

لم تتفق آيرين مع هذه النقطة إطلاقًا، لكن جدالاتٍ كثيرة في الماضي علمتها أن محاربة براين في أراضٍ هو أعلم منها بها أمرٌ لا طائل منه. هربت بعيدًا عن الموضوع، متجاهلة تأكيده غير المقنِع.

سألت: «أتساءل عما إذا كان لديك وقتٌ لتوصلني إلى مكتب المطبعة. على شارع المئة وستة عشر. يتعيّن علي أن أتدبر أمر بعض المنشورات وتذاكر أخرى لحفلة الرقص».

«أكيد. كيف تجري الأمور؟ هل انتهيتم من ترتيب كل شيء؟»

«امم، أظن ذلك. تذاكر المقصورات بيعت كلها، كما بيعت تقريبًا كل الدفعة الأولى من التذاكر. ونتوقع أن نستوعب مثل ذلك العدد عند

الباب. ثم هنالك الكعك الذي سنبيعه. إنه عملٌ كثير مضنٍ على كل حال».

«لا شك في ذلك. النهوض بالأخ ليس مسألة سهلة. أنا نفسي مشغولٌ انشغالَ قطةٍ ببراغيث». ثم أُلقي على وجهه ظل. «يا إلهي! كم أكره المرضى، وعائلاتهم الغبية المتطفلة، وحجراتهم القذرة كريهة الرائحة، وصعود الدرجات المتسخة في الممرات المعتمة».

«بالتأكيد،» بدأت آيرين تصدّ الخوف وعدم الارتياح اللذين شعرت بهما، «بالتأكيد...»

أخرسها زوجها، قائلاً بحدة:» أرجوك، لا نريد أن نتكلم عن هذا» ثم فورًا، وبنبرته المعهودة الهازئة قليلاً، سأل: «جاهزة للذهاب الآن؟ ليس لدي الكثير من الوقت لأنتظر».

قام. تبعته في الخروج إلى الصالة دون أن تجيب. التقط قبعته البنية الناعمة من الطاولة الصغيرة وأخذ يدوّرها لحظةً على أصابعه الطويلة التي لها لون الشاي.

كانت آيرين تفكر إذ نظرت إليه: «ليس عدلاً، ليس عدلاً». الاستمرار في لومها بهذا الشكل بعد كل هذه السنين. ألا يبرهن هذا النجاح على أنها كانت محقة في إصرارها على أن يتشبث بوظيفته هنا في نيويورك؟ ألا يستطيع أن يدرك، ولو الآن، أنّ من الأفضل أن يفعل؟ ليس من أجلها، أوه لا، ليس من أجلها —لم تهتم لنفسها قط— بل من أجله هو والولدين. ألم تقدر على أن تتحرر منه، ذلك الخوف الجاثم أبدًا في أعماقها، خاطفًا الشعور بالأمان والاستقرار من الحياة التي رسمتها لهم جميعًا بشكل رائع، ورغبت بحماس أن تستمر كما كانت؟ فكرة براين الغريبة، والخيالية بالنسبة لها، في الانتقال إلى البرازيل، المستقرة في رأسه

على رغم أنها لا تُذكر: كم ترعبها، و... نعم، كم تثير سخطها!

«حسنًا؟» سأل بخفة.

«سآخذ أشيائي. دقيقة واحدة». وعدت، ثم صعدت إلى الأعلى.

كان صوتها معتدلاً وخطوتها واثقة، لكن في داخلها لم يكن هناك أدنى تراخٍ في الاهتياج، في الإنذارات، التي أيقظها شعور براين بالاستياء. لم يتحدث أبدًا عن رغبته منذ زمن الزوابع البعيد ذاك، زمن الشجار البغيض والكارثي تقريبًا، حين كانت تعارضه بصمود شديد، وتشير بتعقلٍ إلى الاستحالة التامة للفكرة وعواقبها المحتملة عليها وعلى الولدَين، بل وتلمّح إلى حلّ زواجهما في حال إصراره على فكرته. لا، لم يكن طوال تلك السنين التي عاشا فيها معًا منذ ذلك الوقت حديثٌ آخر عن تلك الفكرة، ليس أكثر من أيّ خلافات أخرى أو مخاوف. ولكن، كما تحبّ أن تؤكد لنفسها، لأن أواصر البدن والروح بينهما كانت متينة جدًا، الأمر الذي كانت تعرفه دائمًا، لدرجةِ استمر استياؤه كما استمرت كراهيته لمهنته وبلده واشمئزازه منهما.

تسلل إليها شعور بالارتباك لدى شكّها اللا متخيل في أنها قد تكون مخطئة في تقدير شخصية زوجها. لكنها راغت بعيدا عنها. مستحيل! لا يمكن أن تكون مخطئة. كل شيء دلّ على أنها محقّة. أكثر من محقة، لو كان ثمة ما هو أكثر من ذلك. وطمأنت نفسها أن كل هذا لأنها فهمته جيدًا، لأنها في الواقع موهوبةٌ في فهمه. في تقديرها، كان ذلك الشيء أساسَ النجاح الذي صنعته من زواج كان موعودًا بالإخفاق. عرفته كما عرف نفسه، أو أفضل مما عرف نفسَه.

لماذا القلق إذن؟ هذا الاستياء الذي انفجر في كلماتٍ سيموت بالطبع، سيذوي في نهاية الأمر. فعلاً، فغالبا ما كانت في الماضي تحث نفسها على

الاعتقاد بأنه مات، فقط لتدرك بطريقةٍ ما، حدسيةٍ وماكرةٍ، أنها إنما كانت تخدع نفسها لبعض الوقت وأنه لا يزال حيًّا. لكنه سوف يموت. متأكدة من هذا. كل ما عليها هو أن تقود رجُلها وتوجهه، أن تبقيه سائرًا في الاتجاه الصحيح.

لبست معطفها وعدلت قبعتها.

أجل، سوف يموت، ما دامت قد عقدت العزم على أنه يجب أن يموت. لكن في الوقت الراهن، بينما ما زال حيًا وقادرًا على أن يشعل غضبها ويرعبها، فإن عليه أن يُكبت ويطفأ، وأن يُقدَّم عوضًا عنه شيءٌ آخر. يتعين عليها أن تقوم بخطة ما، أن تتخذ قرارًا ما، حالاً. عبست لأن الفكرة ضايقتها كثيرًا. لأنها ستكون مهمة ومزعجة ربما، وإنْ كان بشكل مؤقت. لا تحب آيرين التغيير، خصوصًا التغييرات التي تؤثر على الروتين السلس لأسرتها. حسنًا، لا مناص هذه المرة. لا بد أن تقوم بشيء ما. وعلى الفور.

أخذت محفظتها وارتدت قفازيها وهي نازلة عبر الدرج، ثم خرجت إلى الباب الذي أمسك به براين مفتوحًا، فاستقلت السيارة المنتظرة.

قالت وهي تسوّي مقعدها من الكرسي المجاور له: «تعرف، أنا سعيدة جدًا لأن أحظى بهذه الدقيقة معك لوحدنا. يبدو أننا مشغولان دائمًا —أكره هذا— لكن ماذا بوسعنا أن نصنع؟ لطالما كان لدي في ذهني شيء ما، شيء يُحتم علينا أن نتحدث بشأنه ونأخذه على محمل الجد».

أرعد محرك السيارة إذ انطلقت بعيدًا عن الرصيف إلى الشارع خفيفِ المرور بقيادة براين الخبير.

تأملت جانب وجهه مليًّا.

انعطفا إلى الجادة السابعة. ثم قال: «حسنًا، إلينا به. الآن هو أنسب وقت لتسوية الأمور الثقيلة».

«يتعلق الأمر بجونيور. أتساءل عما إذا كان يتعلم في المدرسة أكثر مما يجب؟ ننسى أنه لم يبلغ الحادية عشرة حتى. لن يكون في صالحه بالتأكيد أن يتعلم.. حسنًا، إذا كان، أعني.. أن يتعلم أكثر مما يجب. بالطبع، تعرفُ عن هذه الأشياء أكثر مما أعرف. ولهذا أنت خير من يحكم. أعني، إن لاحظتَها أو فكرت فيها أصلاً».

«أتمنى يا آيرين ألا تقلقي نفسك دائمًا وأبدًا بشأن الولدين. إنهما على ما يرام. على ما يرام تمامًا. ولدان جيدان، قويان، وفي كامل الصحة، خصوصًا جونيور. جونيور على وجه التحديد».

«حسنًا، أظنك على حق. متوقعٌ منك أن تعرف عن مثل تلك الأشياء، وأنا على يقين أنك لن ترتكب خطأ بحق ابنك.» (لماذا قالت هذا الآن؟) «لكن ليس هذا كل شيء. أنا خائفة كثيرًا لأنه تشرّب بعض الأفكار الشاذة بخصوص الأشياء —بعض الأشياء— من الأولاد الذين يكبرونه، كما تعلم».

جاء أسلوبها هادئًا على نحو واعٍ. بدا في الظاهر أنها مركّزة في متاهة المرور، لكنها كانت ما تلبثُ تراقب وجه براين عن كثب. يعلوه تعبيرٌ خاص. هل كان، هل يمكن أن يكون، مزيجًا من الاحتقار والنفور؟

أعاد: «أفكار شاذة؟ هل تقصدين أفكارًا بخصوص الجنس يا آيرين؟»

«نعم. أفكار ليست جيدة تمامًا. نكاتٌ مريعة، وأشياء من ذلك القبيل».

صاح بها: «أوه، فهمت». لدقيقة حال بينهما صمتٌ. وبعد لحظة سأل بفظاظة: «حسنًا، ماذا عنها؟ إن لم يكن الجنس نكتة، فماذا عساه أن

يكون؟ وما هي النكتة؟»

جاء صوتها واضحًا، رزينًا، ومستهجنًا: «مثلما تشاء يا براين. هو ولدك، كما تعرف».

«بالضبط! وأنت تحاولين أن تجعلي منه مخنثًا. دعيني أخبرك، لن يكون كما تريدين. ولست بحاجة إلى التفكير أني سأدعك تنقلينه إلى مدرسة على شكل حضانة أطفال لطيفة لأنه يكتسب قليلا من التعليم الضروري. لن أدعك! سيبقى حيثما هو الآن. كلما عرف عن الجنس أكثر ومبكرًا كان أصلح له. خصوصًا لو يعرف أنه نكتة كبرى، بل أعظم نكتة في العالم. سيجنبه ذلك كثيرًا من الخيبات فيما بعد».

لم تجب آيرين.

بلغا المطبعة. ترجلت، وصفقت باب السيارة بقوة وراءها. كان في قلبها ألمٌ حاد من التعاسة. لم تقصد أن تتصرف على هذا النحو، لكن حنقها الشديد من موقفه، إحساسها بأن تُفهم خطأ عن قصد وتُوبخ، أفضى بها إلى الغضب.

داخل المطبعة هدأت من ارتجاف شفتيها وصدّت غضبها المتزايد. لما أُنجز شغلها، قفلت إلى السيارة في مزاج مهذب. ولكن في مقابل الصمت العنيد الذي يتوقى به براين وجدت نفسها تقول في صوت معدني هادئ: «لا أظن أني سأعود الآن. فقد تذكرت أن علي أن أفعل شيئًا بخصوص شراء شيء لائق ألبسه. ليس لدي خرقة تناسب أن يراني الناس فيها. سأستقل الباص إلى وسط المدينة».

لم يفعل براين سوى أن رفع قبعته بتلك الطريقة المهذبة التي تدفع إلى الجنون، والتي كبحت بنجاحٍ انفعالَه بقدر ما كشفت عنه.

«مع السلامة. شكرًا على إيصالي». قالت بسخرية وانعطفت باتجاه الجادة.

تساءلت بندم، ما الذي ينبغي عليها أن تفعله بعد ذلك؟ كانت منزعجة من نفسها بسبب اختيارها افتتاحيةً ثبت أنها خرقاء لِما نوتْ أن تقترحه: مدرسة في أوروبا لجونيور في العام المقبل، يأخذه إليها براين. لو استطاعت أن تقدم خطتها بافتتاحية أخرى أكثر استحسانًا، ووافق هو عليها، كما كانت متأكدة من ذلك، لتطلع إليها باعتبارها كسرًا للرتابة الصريحة التي يبدو، ولسبب استعصى على إدراكها تمامًا، أن براين يمقتها بشدة.

كانت أكثر انزعاجًا من انفجارها الغاضب. ما الذي أصابها حتى تسمح بظهوره في مثل هذه اللحظة؟

تدريجيًا اعتدل مزاجها. انسحبت من فشل محاولتها الأولى، دون أن تشعر بتثبيط بقدر ما كانت خجلة. فكرت أنه ربما، إضافة إلى التوقيت السيئ لفقدانها أعصابها، تعجّلت في حماسها لتشتيت انتباهه، أو أفرطت في الاقتراب منه أثناء فورته، وبذلك تكون قد أثارت شكوكه وأيقظت عناده. ما كان عليها إلا أن تنتظر. سيأتي وقت آخر أكثرُ ملاءمة، غدًا، أو الأسبوع القادم، أو الشهر القادم. إنها ليست خائفة الآن، كما كانت من قبل، أن يرمي بكل شيء جانبًا ويفرّ إلى ذلك المكان البعيد الذي تحمله إليه رغبةُ جَنانه. تعرف أنه لن يفعل. لقد كان مغرمًا بها، محبًّا لها على طريقته المتحفظة قليلاً في التعبير.

ثم إن هنالك الولدين.

لم تُرد سوى أن يكون سعيدًا، مستاءة على أية حال من عجزه عن أن يكون كذلك والأمور على ما هي عليه، دون أن تعترف قط بأنه على

رغم أنها أرادت له السعادة، إلا أنها لم تُردها له فعلاً إلا بطريقتها الخاصة وبمعاونة بعض الخطط التي تدبرها له. كما لم تقرّ أنها تعتبر كل الخطط الأخرى، كل الأساليب الأخرى لإسعاده، بشكل أو بآخر تهديدات غير مباشرة لأمان المكان والمعيشة ذاك الذي أصرت على توفيره لولديها، ولنفسها بدرجة أقل.

٢

انقضت خمسة أيام منذ رسالة كلير كندري المستغيثة. آيرين ردفيلد لم تردّ عليها، كما لم تتلقَ أي كلمة أخرى من كلير.

لم تنفذ نيّتها الأولى بالكتابة حالاً، لأنها بالعودة إلى الرسالة بحثًا عن عنوان كلير واجهت، في غمرة صرامة تصميمها على إبقاء الجدار الذي رفعته بينهما كليرُ بنفسها غيرَ مكسور، واجهت شيئًا نسيته أو لم تتنبه إليه بشكل كامل. ألا وهو حقيقة أن كلير طلبت منها أن توجه ردها إلى التوصيل العادي بمكتب البريد.

أغضب ذلك آيرين، وضاعف من ازدرائها واحتقارها للأخرى.

قذفت بالرسالة بعد أن مزّقتها نصفين في سلة المهملات. لم يكن السبب حرصَ كلير ورغبتها في أن تبقى علاقتهما طيّ الكتمان —تتفهم آيرين الحاجة إلى ذلك— بقدر ما كان شكّها وعدم ثقتها في حذر آيرين لدى صياغة ردها وإرساله. ونظرًا لثقة آيرين المطلقة في بصيرتها ولباقتها، فإنها لم تحتمل أن يمتحنهما أحد، حتى وإن كان كلير كندري.

في لحظة أخرى أكثر صفاءً قررت أن من الأفضل في النهاية ألا تجيب على شيء، ألا توضّح شيئًا، ألا ترفض شيئًا؛ أن تتخلص من الموضوع بعدم الكتابة نهائيًا. ولن تخطئ كليرُ، التي لا يمكن القول إنها غبية، معنى ذلك الصمت. قد تختار تجاهلَه، وآيرين على يقين من أنها ستفعل،

وتعاود الكتابة، لكن ذلك لن يهم. سيكون الأمر برمّته في غاية السهولة. السلةُ للرسائل، والصمتُ للإجابة عليها.

على الأرجح أنها وكلير لن تلتقيا من جديد. حسنًا، من جهتها، ستحتمل هذا الشيء. منذ الطفولة لم تتعالق حياتهما فعليًا. كانتا في الواقع غريبتين. غريبتين في طريقة العيش وأسلوبه. غريبتين في رغباتهما وطموحاتهما. غريبتين حتى في وعيهما العِرقي. كان الحاجز بينهما عاليًا ومتينًا وراسخًا كما لو أن كلير لم يجرِ بها قطّ عرقُ الدم الأسود ذاك. الحقّ أنه كان أعلى وأمتن وأرسخ لأنه لم تكن بالنسبة لكلير ثمة مخاطر، مجهولة أو متخيلة، من أولئك الذين لا يملكون أسرارًا ترعبهم وتهددهم.

كان اليوم يزحف نحو المساء. بعد منتصف أكتوبر. انقضى أسبوع من المطر البارد، مبللاً الأوراق النخرة التي تساقطت من الأشجار البائسة المصطفة على امتداد الشارع الذي يقع عليه منزل عائلة ردفيلد، ومرسلاً إلى داخل البيت هواء رطبًا من البرودة المخترِقة، في إيحاءٍ بالأيام الباردة القادمة. في غرفة آيرين كانت تشتعل نارٌ ضعيفة. في الخارج، لم يتبق من النهار سوى ضوء رمادي بليد. أما في الداخل فقد أشعلت المصابيح.

من الطابق العلوي جاء صوتُ جلبة لأصوات غضة. أحيانًا يكون جونيور جادًّا وإيجابيًا، بينما تيد لطيف بشكل مخادع ككل مرة. غالبًا ما يكون عند اجتماعهما ضحكٌ، أو ضوضاء لحركة، أو لمصارعة، أو لدمى تقذف على الأرض.

كان جونيور، الطويل مقارنة بسنّه، يشبه أباه بشكل لا يصدق، إنْ في الملامح وإن في اللون على السواء، لكنه ورث طباعه عنها أكثر مما ورثها عن أبيه، ولذا فإنه عملي وحازم. أما تيد، حيث إنه تأملي وانطوائي، فهو أقل إيجابية في أفكاره ورغباته على ما يبدو. كان يبدي للآخرين

صورة خادعة من الصراحة تشبه في تقدير آيرين تظاهرَ والده بالإذعان الحصيف. لو أذعن الآن وبمظهر عفوي ساحر لإكراهٍ قوةٍ متفوقة أو لظرفٍ لا يتزحزح فإنما بسبب كراهيته للدراما والنزاع البغيض. براين من جديد.

انزلق تدريجيًا تفكير آيرين من جونيور وتيد، لينغمس كليًا في والدهما.

من جديد وضعَ الخوفُ القديم، الخوفُ على المستقبل، إذ ازدادت قوته، يدَه عليها. ولم تستطع أن تنفضه عن نفسها مهما حاولت. كما لو أنها أقرّت لنفسها بضعف حيلتها أمام تظاهر زوجها بموافقته على أمنياتها والذي وارى، منذ أن أعادته الحربُ إليها سليم البدن، ميلاً متزايدًا إلى إعتاق نفسه وممتلكاته من وضعها المناسب.

تقهقر الغم الذي شعرت به عند إخفاقها الأول في إفساد هذا التجلّي الأخير لاستيائه، مخلفًا إثره كآبةً تقض المضجع. هل كانت كل جهودها، كل كدحها المضني، كل سعيها الصامت إلى أن تثبت له أن طريقتها هي الأنجع، كل مساعداتها له، كل انكفائها الذاتي خارجيًا، بلا تأثير في لحظة غير محسوسة ومفاجئة؟ ولو كان الأمر كذلك، كيف ستجيء النتائج على الولدين؟ عليها؟ على براين نفسه؟ لم يَجُدْ بحثها اللا نهائي بإجابة على هذه الأسئلة. لم يكن هناك سوى تعبٍ مُهلكٍ من ارتحالها المكوكي داخل عقلها.

علا الصخب وارتفعت الضوضاء في الطابق العلوي. كانت آيرين على وشك أن تخرج إلى السلّم وتطلب من الولدين أن يهدآ في لعبهما عندما سمعت جرس الباب يرن.

مَن عساه أن يكون في هذه الساعة؟ استمعت إلى كعب زولينا يخفت قرعه في طريقها إلى الباب، ثم إلى الصوت المنتقل لقدميها على السلم،

ثم إلى طرقها الخفيف على باب غرفة النوم.

قالت لها آيرين: «نعم، ادخلي».

وقفت زولينا على مدخل الباب، وقالت: «جاءت امرأة لزيارتك يا سيدة ردفيلد». نبرتها كانت نادمة ومشوبة بحذر، كما لو أنها تريد القول إنها ترددت في إزعاج سيدتها في هذه الساعة من أجلِ غريبة. «اسمها سيدة بيلو».

كلير!

انطلقت آيرين: «أوه يا إلهي! أخبريها يا زولينا أني لا أستطيع... لا. سأراها. أرجوك اصحبيها إلى الأعلى هنا».

سمعت زولينا تعبر الممر، وتنزل من السلم، ثم وقفت تعدل الطيات الخضراء والعاجية المتموجة في فستانها بتربيتاتٍ خفيفة ممسِّدة. رشّت أمام المرأة قليلاً من المسحوق على أنفها ومشطت شعرها.

أرادت أن تخبر كلير كندري فورًا، وبتصميم، أنه لا طائل من قدومها، وأنها لا يمكن أن تكون مسؤولة، وأنها ناقشت الموضوع مع براين، الذي اتفق معها أن من الحكمة، ولمصلحة كلير نفسها، أن تكفّ... لكن هذا كل ما توصلت إليه في بروفتها. لقد دلفت كلير إلى الغرفة بهدوء من دون أن تطرق الباب، وقبل أن تحيّيها آيرين، طبعت قبلة على تجعيداتها السوداء.

حين نظرت إلى المرأة الواقفة أمامها، شعرت آيرين ردفيلد بتدفق من الشعور بالحب لا تفسير له. مدت يديها وأمسكت بيدي كلير ثم صاحت وفي صوتها ما يشبه الهلع: «يا إلهي! ولكن ألستِ فاتنة، يا كلير!»

رمت كلير هذا جانبًا. مثلما رمت قبعة الفرو الزرقاء الصغيرة فوق السرير قبل أن تأخذ مجلسها بشكل مائل من كرسي آيرين المفضل، وقد طوت تحتها إحدى قدميها.

«ألم تكوني تنوين الرد على رسالتي يا رين؟» سألت باتزان.

أشاحت آيرين عينيها. كان لديها ذلك الشعور غير المريح الذي يشعر به المرء عندما لا يكون بالغ اللطف أو تام الصدق.

تابعت كلير: «كل يوم كنت أذهب إلى مكتب البريد القذر ذاك. أنا متأكدة من أنهم بدؤوا يظنون أني في علاقة حب محرمة وأن الرجل قد هجرني. كل صباح نفس الإجابة: «لا شيء لك». أصابني خوفٌ مريع، وقد خِلتُ أنْ قد صار شيء لرسالتك أو رسالتي. وفي منتصف الليل كنت أضطجع متيقظة وأنظر إلى النجوم الهزيلة —يا لها من كائنات بائسة، تلك النجوم— قلقة ومتسائلة. حتى اقتنعت أخيرًا أنك لم تكتبي ولم تنوي الكتابة. ثم، وبمجرد أن غادر جاك إلى فلوريدا، أتيتُ رأسًا إلى هنا. والآن، رين، أرجوك أخبريني بصراحة لماذا لم تجيبي على رسالتي».

«لأني، كما ترين...» بدأت آيرين ثم تركت كلير تنتظر بينما أشعلت سيجارة، ونفخت على عود الثقاب، وألقت به في منفضة. كانت تحاول لملمة أفكارها، لأن حاستها السادسة حذرتها من أن مسألة إقناع كلير كندري بحماقة هارلم ستكون أصعب مما كانت تظن. أخيرًا استأنفت: «لا أستطيع كفّ نفسي عن التفكير في أنه لا ينبغي لك أن تأتي إلى هنا، لا يجدر بك أن تجازفي بالتعرف إلى الزنوج».

«تعنين أنك لا تريدينني يا رين؟»

لم تظن آيرين أن أحدًا سيبدو جريحًا بسبب ردها مثلما بدت كلير. قالت

بلطف بيّن: «لا، يا كلير، ليس هكذا. لكن حتى أنت يجب أن تَرَي أن الأمر حماقة عظيمة، وليس الشيءَ الصحيح إطلاقًا».

جلجل رنينُ ضحكة كلير، بينما مررت يديها على شعرها اللامع. صرخت: «أوه يا رين، أنت لا تقدّرين بثمن. ولم تتغيري قيد أنملة. الشيء الصحيح!» نظرت، وهي تتكئ إلى الأمام، بفضولٍ إلى عيني آيرين البُنيتين المستهجنتين. «لا تعنين.. مستحيلٌ حقا أنك تعنين ذلك! لا أحد يستطيع. إنه ببساطةٍ أمرٌ لا يصدق».

قامت آيرين على قدميها قبل أن تدرك أنها وقفت. ردت: «ما أعنيه فعلاً أنه خطير وأنه لا يجدر بك أن تُقدمي على مجازفات سخيفة كهذه. لا يجدر بأي أحد. أنتِ أولهم».

لم يكن صوتها مباليًا. لأن في ذهنها انبثقت فكرةٌ غريبة وبعيدة الصلة، شكٌّ فاجأها وصدمها وأوقفها على قدميها. وهو أنه على رغم الأنانية الصريحة لهذه المرأة التي أمامها فإنها تَقدِر على بلوغ آفاق عالية وأعماق سحيقة من مشاعر لم تَخبُرها آيرين ردفيلد بنفسها قط. أو بالأحرى لم تهتم لمعرفتها أبدًا. اختفت الفكرة، الشك، بنفس السرعة التي انبثقت بها.

قالت كلير: «أوه، أنا!»

لمست آيرين ذراعها بلطف، كما لو كانت نادمة على تلك الفكرة الوامضة. «نعم، كلير، أنت. هذا ليس تصرفًا آمنًا. ليس آمنًا على الإطلاق».

«آمنا!»

بدا لآيرين أن كلير عضّت بأسنانها على الكلمة ثم قذفتها. ولثانية أخرى راودها شكٌّ في قدرة كلير على نوع من الشعور غريب، بل كريه، بالنسبة

إليها. كما كانت على وعي بهاجس مبهم لكارثةٍ ما وشيكةِ الحدوث. كما لو أن كلير كندري، مَن كان لها الأمانُ في غاية الأهمية، قالت لها: «آمنًا! اللعنة على الأمان!» وكانت تعني ما قالت.

في إشارة إلى نفاد الصبر، جلست. قالت بصوت رسمي وبارد: «تحدثتُ مع براين عن الموضوع باهتمام وقررنا أنه ليس من الحصافة بمكان. قال إنها مسألة خطيرة دائمًا، هذه العودة. رأى أكثر من واحد انتهى به الحال إلى الغمِّ بسببها. إضافة إلى ذلك، يا كلير، مع أخذ كل الأشياء في الاعتبار —موقف السيد بيلو وكل ما إلى ذلك— ألا تعتقدين بأنك يجب أن تكوني على أكبر قدر ممكن من الحيطة؟»

كسر صوتُ كلير العميق الصمتَ القصير الذي تبع كلام آيرين. قالت، وقد شاب حديثها نبرةُ حزن: «كان لزامًا عليّ أن أعرف. الأمر متعلق بجاك. لا ألومك على غضبك، مع أني يجب أن أقول إنك تصرفتِ بشكل رائع ذلك اليوم. لكني ظننت أنك ستتفهمين يا رين. كان ذلك الشيء جزئيًا ما جعلني أريد أن أرى أناسًا آخرين. انقضّ عليّ وغير كل شيء. لو لم يكن الأمر كذلك لواصلتُ حتى النهاية دون أن أرى أيًّا منكم. لكن ذلك الشيء آلمني، وأضحيتُ وحيدة منذ ذلك الوقت! لا يمكنك أن تعرفي. لست قريبة من أي نفس. ما من أحد لأتحدث إليه حقًا».

سحقت آيرين سيجارتها. في هذه الأثناء رأت من جديد مشهدَ كلير كندري تحدق بازدراء في وجه أبيها، وفكرت أنها ستنظر إلى زوجها بنفس الطريقة لو رقد ميتًا أمامها.

زال استياؤها وكان لصوتها نبرةٌ من الشفقة وهي تتعجب: «يا إلهي يا كلير! لم أكن أعرف. سامحيني. أشعر كما لو أني سبعة وحوش. كان من

الغباء ألاّ أدرك».

«لا، إطلاقًا لا. ما كنت ستستطيعين. لا أحد، لا أحد منكم». تنهدت كلير. امتلأت عيناها السوداوان بالدموع التي انحدرت على خديها وتساقطت في حجرها، ملحقةً الضرر بمخمل فستانها الثمين. يداها الطويلتان كانتا مرفوعتين قليلاً ومضمومتين بإحكام إلى بعضهما. كانت محاولتها في الحديث باعتدال واضحة لكن غير ناجحة. «كيف يتسنى لك أن تعرفي؟ كيف؟ أنت حرة. أنت سعيدة. و..» بسخرية مترددة «..آمنة».

تجاوزت آيرين مسحة السخرية تلك، فالثورة المؤثرة لكلمات المرأة الأخرى جلبت الدموع لعينيها هي، على رغم أنها لم تدعْها تسقط. والحق أنها عرفت أن البكاء ليس من طبعها. تخيلت أن نساء قليلات بَكيْنَ بنفس جاذبية بكاء كلير. تمتمت: «بدأت أؤمن أنه لا أحد أبدًا سعيد تمام السعادة، أو حر تمام الحرية، أو آمن تمام الأمان. حسنًا، ما الفرق إذن؟ مجازفة واحدة أو أكثر، إذا لم نكن آمنتَيْن على كل حال، حتى وإن لم تكوني آمنة، لا يمكن أن تصنع فارقًا كبيرًا في العالم. لا يمكن أن تصنع بالنسبة لي. إضافة إلى ذلك، أنا اعتدت المجازفات. وهذه ليست مجازفة كبيرة كما تحاولين أن تجعليها».

«أوه، ولكنها كذلك. وبإمكانها أن تصنع كل الفارق في العالم. فهناك بنتك الصغيرة يا كلير. فكري في وقع النتائج عليها».

كسا وجهَ كلير نظرةٌ جافلة، كما لو أنها لم تكن مستعدة لهذا السلاح الذي هاجمتها به آيرين. مرت ثوان جلست خلالها بعينين منكوبتين وشفتين معصورتين. أخيرًا قالت: «أعتقد أن أقسى شيء في العالم أن تكوني أمًا». تأرجحت يداها المشبوكتان إلى الأمام وإلى الخلف، وتعذّر كبحُ

فمها القرمزي عن الارتعاش.

وافقتها آيرين بلطف: «صحيح». ولوهلة لم تكن قادرة على إضافة المزيد، إذ أحسنت كلير بكلماتها وصف ما لم يوصف، وما يعتلج في صدر آيرين مؤخرًا. وفي الوقت نفسه كانت تدرك أن هنا، بين يديها، سببًا لا يمكن تنحيته جانبًا بسهولة. كررت: «صحيح، وأكثر شيء في العالم مسؤولية يا كلير. نحن الأمهات مسؤولات بشكل كامل عن أمان أطفالنا وسعادتهم. فكري فيما سيحصل لابنتك مارجري لو اكتشف السيد بيلو. يمكن أن تخسريها. وحتى لو لم تخسريها، لن يعود أي شيء يتعلق بها كما كان. لن ينسى أبدًا أن بها عرقًا زنجيًا. ولو عرفت.. أعتقد أنه بمعرفة شيء كهذا بعد سن الثانية عشرة، يكون قد سبق السيف العذل. لن تغفر لك أبدَ الدهر. قد تكونين معتادة على المجازفات، لكن هذه مجازفةٌ يجب ألا تُقدمي عليها يا كلير. إنها نزوة أنانية، ليست ضرورية و...»

«نعم يا زولينا، ما الأمر؟» استفسرتْ، بقليل من الحدة، من الخادمة التي تصلبت بصمت عند المدخل.

«مكالمة لك يا سيدة ردفيلد. من السيد ونتوورث».

«حسنًا، أشكرك. سأجيب من هنا». وباعتذارٍ متمتمٍ من كلير التقطت السماعة.

«مرحبًا ... نعم، يا هيو ... أوه، مناسب ... وأنت؟ ... أنا آسفة، نفدت كل المقصورات المنفردة ... أوه، مؤسف فعلاً ... نعم، أظنك تستطيع. ليس شيئًا سارًا على أية حال ... انتظر! إنها معي! سأتبادل مع من يجلس إلى جوارك ... لا ... أعني ما أقول... سأكون مشغولة جدًا لدرجة أني لن أعرف ما إذا كنتُ جالسة أم واقفة ... ما دام لبراين مكان يجلس فيه

بين الفينة والأخرى ... لا أحد إطلاقًا ... جميل ... تحياتي لبيانكا ... سأفكر في الأمر حالاً وأعيد الاتصال بك ... مع السلامة».

أنهت المكالمة وعادت إلى كلير، وعلى ملامحها المرسومة بوداعةٍ تقطيبةٌ صغيرة. أوضحت: «إنها حفلة رابطة شؤون السود الاجتماعية الراقصة. أعمل في لجنة التذاكر، أو بالأحرى، أنا لجنة التذاكر. الحمد لله أنها تنتهي ليلة الغد ولا تحدث مرة أخرى لمدة عام كامل. أكاد أجنّ، والآن عليّ أن أقنع أحدهم بأن يبادلني المقصورة».

سألت كلير: «ألم يكن هذا هيو ونتوورث؟ هيو ونتوورث المعروف؟»

أمالت آيرين رأسها. على وجهها كانت ثمة ابتسامة انتصار صغيرة. «نعم، هيو ونتوورث المعروف. هل تعرفينه؟»

«لا، وكيف لي أن أعرفه؟ لكني أعرف عنه. كما قرأت له كتابًا أو كتابين».

«جميلة جدًا، أليس كذلك؟»

«امم، هذا ما أظنه. وجدتُها مليئة بالازدراء نوعًا ما. كما لو يحتقر بطريقة أو بأخرى كل شيء وكل أحد».

«لن أستغرب إطلاقًا لو فعل. مع ذلك، هو اكتسب الحق ليزدري. عاش في أقاصي الأرض في ثلاث قارات على الأقل. مر بكل المخاطر في كل أنواع الأماكن المتوحشة. لا غرو إذن أن يعتقد بأن البقية منا مجموعة كسالى يدللون أنفسهم. مع ذلك هيو عزيزٌ وجوادٌ كأنه أحد تلاميذ المسيح الاثني عشر، يعطيك القميص الذي يرتديه لو أردتِ. بيانكا —وهي زوجته— لطيفة هي الأخرى».«وهل سيأتي إلى هنا لحضور حفلتكم؟»

سألت آيرين ما المانع.

«يبدو الأمر غريبًا. رجل مثله يحضر حفل زنوج راقصة».

أخبرتها آيرين أن هذه سنة ١٩٢٧ م في مدينة نيويورك، وأن مئات البيض على شاكلة هيو ونتوورث يأتون إلى هارلم لقضاء شؤونهم باستمرار. كثيرون جدًا لدرجة أن براين قال: «قريبًا لن يُسمح للملوَّنين بالدخول نهائيًا، أو سيضطرون إلى الجلوس في أقسامٍ كأقسام جيم كرو».[1]

«ما الذي يأتون من أجله؟»

- «نفس السبب الذي أنت هنا من أجله، ليروا الزنوج».

«لكن لماذا؟»

أوضحت آيرين: «دوافع شتى. بعضهم ليمتع نفسه بكل بساطة وبصراحة. آخرون ليبحثوا عن مواد يحولونها إلى عُملات شيكل معدنية. والأكثرية ليحدقوا في النبلاء ومن سواهم بينما يحدقون في الزنوج».

صفقت كلير بيديها. «أظنني سآتي أيضًا. يبدو أنها ممتعة ومسلية للغاية. ولا أرى سببًا في عدم مجيئي».

آيرين، التي كانت تدرُسها عبر جفون ضيقة، جاءتها نفس الفكرة التي راودتها قبل سنتين على سطح الدرايتون، ألا وهي أن كلير مفرطة الحُسن قليلاً. كانت نبرتها تميل إلى السخرية حين قالت: «تقصدين لأن

(1) جيم كرو Jim Crow في الأصل عنوان أغنية شعبية عنصرية غُنيت عام 1832م وأصبح الاسم يطلق بمعنى «زنجي.» استخدام الاسم هنا إشارة إلى قوانين العزل العنصري. المترجم

بِيضًا كثيرين آخرين سيأتون؟»

انتشر لون زهري باهت في خدَّي كلير العاجيين. رفعت يدًا احتجاجًا. «لا تكوني سخيفة! طبعًا لا! أقصد أنه في حشد كهذا لن يلاحظني أحد».

على العكس، جاء رأي آيرين. بل قد يكون الأمر أخطر ضِعفين. قد يراها أحد أصدقاء أو معارف جون بيلو، أو معارفها هي، ويميزها.

هناك ضحكت كلير وقتًا طويلاً، زغاريد موسيقية صغيرة تترادف سلسلة إثر سلسلة. كما لو كانت فكرة ذهاب أي صديق لجون بيلو إلى حفلة زنوج راقصة بالنسبة إليها أظرف الأشياء في العالم.

حين فرغت من الضحك قالت: «لا أعتقد أننا بحاجة إلى القلق بهذا الشأن».

لم تكن آيرين متأكدة مع ذلك. بيد أن كل محاولاتها لثني كلير راحت سدى. لمّا قالت لها: «لا يمكنك أبدًا التنبؤ بمن تقابلين هناك» عقبت كلير: «سأجد طريقة لتفادي اللحظة وتجاوزها».

«أضيفي إلى ذلك أنك لن تعرفي أحدًا وسأكون مشغولة جدًا عن الاعتناء بك. سيقتلك الملل».

«لن أملّ. لن أملّ. لو لم يطلبني أحد للرقص، ولا حتى دكتور ردفيلد، سأكتفي بالجلوس والتحديق في النبلاء ومن سواهم مثل غيري. هيّا، كوني مهذبة يا آيرين وادعيني».

ابتعدت آيرين عن لطف ابتسامة كلير، قائلة حالاً وبثبات: «لن أدعوك».

ردت كلير: «أنا أنوي الذهاب على أية حال». ولم يكن صوتها أقل ثباتًا

من صوت آيرين.

«أوه، لا. لا يمكنك أن تذهبي إلى هناك بمفردك. إنه شيء عام. يذهب إليه كل أصناف الناس، كل من يستطيع أن يدفع دولارًا واحدًا، حتى السيدات ناقصات الحشمة يأتين بحثًا عما يُردن. إن ذهبت إلى هناك بمفردك سيحسبك الناس واحدة منهن، ولن يكون ذلك لطيفًا».

ضحكت كلير مرة أخرى. «أشكرك. لم أكن كذلك قط. قد يكون مسليًا. أحذّرك يا رين، إن لم تكوني طيبة وتصطحبيني سأكون من الحاضرين على أية حال. لا أظن أن دولاري يختلف عن دولار غيري».

«أوه، الدولار! لا تكوني حمقاء يا كلير. لا أكترث بماذا تفعلين أو إلى أين تذهبين. كل ما يهمني هو المشقة والخطر المحتمل الذي قد تتعرضين لهما بسبب وضعك. وبصراحة، لا أحبّذ أن أتورط في أي خصام من هذا النوع». نهضت من جديد وهي تتكلم ووقفت عند النافذة ترفع أوراق الأقحوانة الصفراء في الجرّة الحجرية الرمادية على حافة الشباك وتنشرها. ارتجفت يداها قليلاً، لأنها كانت على حافة الحنق ونفاد الصبر.

بدا وجه كلير غريبًا، وكأنها تريد أن تبكي مرة أخرى. إحدى قدميها المغطاتين بالسّتان تأرجحت جيئة وذهابًا بلا راحة. قالت بصلافة وقليل من العنف: «اللعنة على جاك! يبقيني بعيدة عن كل شيء. كل شيء أريده. سأقتله! أتوقع أني سأفعلها يومًا».

نصحتها آيرين: «لن أفعلها لو كنت مكانكِ. فعقوبة الإعدام كما تعلمين موجودة، في هذه الولاية على الأقل. ثم حقًا يا كلير، بعد كل ما قيل، لا أرى أنك مصيبة في إلقاء كل اللوم عليه. عليك أن تعترفي أن له وجهة نظر مصيبة في الأمر. أنت لم تخبريه بأنك ملونة، ولذا لا سبيل أمامه في معرفة لهفتك على الزنوج، أو أن سماعك وصفه لهم بالزنوج

وبالشياطين السود ينكد عليك ويثير غضبك. في ظني وتقديري، عليك أن تتحملي أشياء وتتخلي عن الأشياء الباقية. وكما قلنا من قبل، لكل شيء ثمن يجب أن يدفع. كوني منطقية، أرجوك».

لكن كلير، كما كان واضحًا، قد أوصدت الباب دون المنطق كما فعلت الشيء نفسه مع الحذر. هزت رأسها. قالت: «لا أستطيع، لا أستطيع. سأفعل لو كنت أقدر، لكني لا أستطيع. أنت لا تعرفين، لا يمكنك أن تدركي إلى أي مدى أريد أن أرى السود، أن أكون معهم من جديد، أن أتحدث معهم، أن أسمعهم يضحكون».

وفي النظرة التي رمقت بها آيرين، كان ثمة شيءٌ ملتمس ويائس، ومع ذلك حازمٌ تمامًا لدرجة أنها كانت مثل صورة للبحث الخائب والتصميم الثابت في روح آيرين نفسها، الأمر الذي ضاعف الشعور بالشك ووخز الضمير الذي ظل ينمو داخلها تجاه كلير كندري.

استسلمت.

«أوه، تعالي إن أردتِ. أحسبك على صواب. مرة واحدة لن تعود بكثير من الضرر».

وهي تكبح جماح عبارات كلير المسرفة في الشكر، إذْ سرعان ما ندمت على موافقتها، قالت بحدة: «هل تودين أن تصعدي إلى أعلى وتَرَيْ ولديّ؟»

«أودّ لو أفعل».

صعدتا، وفكرت آيرين أن براين سيعتبر أنها تصرفت مثل حمقاء ضعيفة الشخصية. وسيكون محقًا. لقد تصرفت كذلك بالفعل.

كانت كلير تبتسم. وقفت على مدخل غرفة لعب الأولاد، ترسل عينيها الظليلتين إلى الأسفل باتجاه جونيور وتيد اللذين انتهيا من عراكهما. كانت على وجه جونيور نظرة صغيرة مضحكة من الامتعاض. أما وجه تيد فكان فارغًا.

قالت كلير: «أرجوكما لا تغضبا. طبعا أعرف أني أفسدت كل شيء. ولكن ربما لو قطعت وعدًا بألا أتمادى كثيرًا ستسمحان لي بالدخول».

أخبرها تيد: «بكل تأكيد، ادخلي لو أردت. لا نستطيع أن نمنعك». ابتسم وانحنى قليلاً لها ثم راغ إلى رفّ يحمل كتبه المفضلة. وإذ أخذ واحدًا منها، جلس على كرسي وشرع في القراءة.

جونيور لم يقل شيئًا، ولم يفعل شيئًا، واكتفى بالوقوف هناك منتظرًا.

«انهض، يا تيد! هذا ليس مهذبًا. هذا ثيودور، سيدة بيلو. أرجوك اغفري سوء أدبه. هو أفضل من ذلك. وهذا براين جونيور. السيدة بيلو صديقة قديمة لأمكما. كنا نلعب معًا عندما كنا صغيرتين».

غادرت كلير واتصل براين ليقول بأنه احتُجز وسيتناول عشاءه في وسط المدينة. كانت آيرين سعيدة قليلاً لهذا السبب. ستخرج بعد ذلك لوحدها، وهذا يعني أنها لن ترى براين على الأرجح حتى الصباح وبالتالي سيكون بإمكانها أن تنحي جانبًا، ولعدة ساعات إضافية، الحديث عن كلير وحفلة رابطة شؤون السود الاجتماعية الراقصة.

كانت غاضبة من نفسها ومن كلير. ولكن من نفسها أكثر، لأنها سمحت لكلير أن تضغط عليها حتى قامت بما سألها براين ألا تفعله. لم تشأ أن تنغص عليه، ليس في ذلك الوقت، ليس في الوقت الذي يسيطر عليه

ذلك الشعور اللا معقول الذي لا يهدأ.

كما كانت منزعجة أيضًا. لأنها أدركت أنها قد وافقت على شيء لو تعدى الأمر إلى ما بعد الرقص فسيورطها في سلسلة طويلة من المضايقات والتملصات التافهة. ليس فقط في البيت مع براين، ولكن خارجه حتى مع الأصدقاء والمعارف. لاحت أمامها الاحتمالاتُ المزعجة المتعلقة بمجيء كلير إلى الحفلة في سرب مزعج لا ينتهي.

ما زالت كلير، كما بدا واضحًا، تحتفظ بقدرتها على الحصول على ما تريد في وجه أية معارضة، وفي تجاهل تام لراحة الآخرين ورغباتهم. كان لديها ميزة، صلبة وملحة، لها قوة الحجر واحتماله، لا يمكن هزيمتها أو تجاهلها. فكرت آيرين أنها لا يمكن أن تنعم بحياة هادئة تمامًا. ليس في وجود ذلك السر الغامض الجاثم أبدًا في خلفية وعيها. ومع ذلك لم يكن لها مظهر المرأة التي مس حياتها شكٌّ أو كرب. الألم، والخوف، والحزن، كلها أشياء تركت أماراتِها على الناس. حتى الحب، ذلك الإحساس الرائع المعذب، ترك آثاره الرقيقة على الملامح.

إلا كلير، فقد بقيت على ما كانت دائمًا عليه، طفلة جذابة ووحيدة بعض الشيء، طفلة أنانية، عنيدة، ومزعجة.

٣

الأشياء التي تذكرتها آيرين ردفيلد فيما بعد عن حفلة رابطة شؤون السود الاجتماعية الراقصة بدت لها غير مهمة وعديمة الصلة.

تذكرت الابتسامة الساخرة بعض الشيء والتي أخفى بها براين غضبه حينما أعلمته باعتذار جمّ أنها قطعت وعدًا بأن تأخذ كلير وأعادت تلاوة المحادثة التي جرت بينهما أثناء زيارتها.

تذكرت صرخة إعجابها الصغيرة المختنقة، بنزولها مع السلم متأخرة بضع دقائق عن الوقت الذي أرادت النزول فيه، حين أسرعت إلى غرفة المعيشة حيث يجلس براين منتظرًا فوجدت كلير هناك أيضًا. كلير، فاتنة، مضيئة، عبقة، مزدهية، في فستان فخم من التفتة السوداء اللامعة، يتدلى ذيله الطويل في طيات أنيقة ساقطة حول قدميها الذهبيتين النحيلتين، شعرها اللامع مسحوب بسلاسة إلى الوراء ومنتهٍ بلفّة صغيرة عند قَفا العنق، عيناها متألقتان مثل جوهرتين معتمتين. شعرت آيرين، بفستان الشيفون الوردي المنتهي عند ركبتيها، وعقصات شعرها المقصوص، كما لو أن لباسها رثٌ ومبتذل. ندمت على أنها لم تُشِرْ إلى كلير بأن ترتدي شيئًا عاديًا وغير ملفت للأنظار. ماذا بحق الله سيقول براين عن لفت الانتباه المتعمد؟ لكن لو كان في مظهر كلير كندري أي شيء مزعج بالنسبة لبراين ردفيلد أو مثير لاستيائه، فقد غابت الحقيقة عن إدراك زوجته حين وقفت تحدق في وجهه بشعور مرتبك بالقلق، في الأثناء

التي أوضحت فيها كلير أنْ قد قدم كل منهما نفسه للآخر، مرفقةً كلماتِها بابتسامة مُراعية لبراين، ومتلقيّة في المقابل واحدةً من ابتساماته المستمتعة والساخرة قليلاً.

تذكرت قولَ كلير حين انطلقوا شمالاً: «تعرفين؟ أشعر بنفس الشعور الذي راودني يوم الأحد الذي ذهبنا فيه إلى احتفال شجرة عيد الميلاد. كنت أعرف أن مفاجأةً لي ستكون في انتظاري ولم أستطع أن أخمن ما هي. إني متحمسة جدًا. لا يمكنكما أن تتخيلا! كم هو رائع أن أكون في الطريق! لا أكاد أصدق!»

لدى سماع كلماتها ونبرتها زحفت إلى آيرين موجةٌ باردة من الازدراء. كل هذه التعجبات! قالت مُصرّة على أن تتحدث بلا مبالاة: «حسنًا، ربما بطريقة ما ستفاجئين أكثر مما تتوقعين».

استدرك براين من مكانه خلف عجلة القيادة: «لكن من ناحية أخرى، لن تكون متفاجئة تمامًا، لأن الحفلة بلا شك ستكون مثلما توقعتْ تقريبًا. مثل احتفال شجرة عيد الميلاد».

تذكرت اندفاعها في كل اتجاه، تشاور هذا الشخص وذاك، وبين الفينة والأخرى تلتقط على عجل جزءًا من رقصة مع رجل أعجبها رقصه على نحو خاص.

تذكرت لمحاتها الخاطفة لكلير في الحشد الدائر، راقصة، أحيانا مع رجل أبيض، وغالبًا مع أسود، وفي كثير من الأحيان مع براين. كانت آيرين سعيدة لأنه كان لطيفًا مع كلير، وسعيدة لأن كلير وجدت الفرصة لتكتشف أن بعض الرجال الملونين خير من بعض الرجال البيض.

تذكرت حوارًا دخلت فيه مع هيو ونتوورث في نصف ساعة متفرغة

عندما ألقت بنفسها في كرسي ضمن مقصورة فارغة وتركت نظرتها تجول في الحشد المضيء أسفل منها.

رجال شبان، شيوخ، رجال بيض، رجال سود، نساء شابات، نساء عجائز، نساء ورديات، نساء ذهبيات، رجال سِمان، رجال نحاف، رجال طوال، رجال قصار، نساء بدينات، نساء نحيلات، نساء فخمات، نساء قصيرات، جميعهم يتمايلون. قفز إلى ذهنها لحن أغنية للأطفال. التفتت إلى ونتوورث، الذي أخذ للتو مقعده إلى جوراها، ورددتها:

«رجل غني، رجل فقير،

رجل شحاذ، حرامي،

زعيم قبيلة هندي،

طبيب، محامي»

قال ونتوورث: «نعم، هذه هي. يبدو أن الجميع موجودون هنا وزيادة عليهم. لكن ما أحاول أن أكتشفه هو اسم الجميلة الشقراء التي خرجت من القصة الخرافية ووضعها الاجتماعي وعرقها. ترقص مع رالف هازلتن في هذه اللحظة. حالة خاصة من التباين».

وقد كانت كذلك بالفعل. كلير، جميلة وذهبية، مثل يوم مشمس. هازلتن، داكن بعينين تبرقان، مثل ليلة مقمرة.

«إنها فتاة أعرفها منذ وقت طويل في شيكاغو. وهي تريد أن تقابلك أنت تحديدًا».

«هذا أصلحُ لها، أنا متأكد من ذلك تمامًا. والآن، يا للحسرة، يحصل الشيء المعتاد. كل هؤلاء «السادة الملونين» خلبوا لبّ فتاة شمالية

بسيطة».

«كلام فارغ!»

«إنها حقيقة، مثلما يحصل لكل السيدات من عِرقي المتفوق اللاتي انجذبن إلى هنا. انظري إلى بيانكا. هل وقعت عليها عيناي الليلة، فيما عدا لحظات، هنا وهناك، يُدوّرها رجل إثيوبي؟ لم أرها».

«لكن يا هيو، عليك أن تعترف بأن الرجل الملون المتوسط أفضل في الرقص من قرينه الأبيض. هذا إن كان المشاهير ورجال «الزبدة والبَيض» الذين وجدوا طريقهم إلى هنا نماذج عادلة من فن التيربسيكوري الأبيض».[1]

«لست في موضع يسمح بمناقشة الفكرة بحكم أني لم أراقص أيًّا من الذكور. لكني لا أعتقد أن الأمر كذلك ببساطة. إنه شيء آخر، انجذاب آخر. إنهن دائمًا ما يهذين بجمال بعض السود، وخصوصًا من كان داكنًا منهم بشكل استثنائي. خذي هازلتن، على سبيل المثال. صرحت عشرات النساء أنه وسيم على نحو خيالي. ماذا عنك آيرين؟ هل تعتقدين أنه جميل بشكل ساحر؟»

«لا أعتقد! ولا أظن أن الأخريات يعتقدن ذلك أيضًا. أعتقد أن ما يشعرن به نوع من الحماس العاطفي. تعرف، ذلك النوع من الشعور الذي تحس به في حضور شيء غريب جدًا لدرجة أنه يقع على الطرف المقابل من كل أفكارك المعتادة عن الجمال».

«اللعنة علي إن لم أقلْ إنك وقعت على نصف الحقيقة!»

---

(1) اسم النسب من إحدى عرائس الشعر وآلهة الرقص في الميثولوجيا الإغريقية. المترجم

«أنا متأكدة من أني محقة. تمامًا. (طبعا ما عدا حين يكون الأمر مجرد لطافة فوقية من جانبهن). وأعرف فتيات ملونات خضن التجربة نفسها، على العكس من ذلك، بشكل طبيعي».

«والرجال؟ أنت لا تؤيدين الرأي العام عن سبب مجيئهم إلى هنا. محض افتراس. أو أنك تؤيدين؟»

«لا. يجب أن أقول إنه دافع الفضول أكثر منه الافتراس».

ألقى عليها ونتوورث، بعينيه ذات اللون الكهرماني المعتم، نظرة طويلة متفحصة كانت في واقع الأمر تحديقًا. قال: «كل هذا ممتع بشكل مدهش يا آيرين. علينا أن نتحدث عنه بشكل مطول في وقت قريب. لدينا صديقتك من شيكاغو، للمرة الأولى هنا. مثال قريب».

لم ترفع ابتسامة آيرين سوى ركنيّ شفتيها المصبوغتين. اتّقد عودُ ثقاب في يدي ونتوورث العريضتين حين أشعل سيجارتها وسيجارته، وانطفأ قبل أن يسأل: «أم أنها لا تصلح مثالاً؟»

تغيرت ابتسامتها إلى ضحكة. «أوه يا هيو، أنت ذكي جدًا. عادة تعرف كل شيء. تستطيع أن تميز حتى الشياه من الماعز. ما رأيك أنت؟»

نفث سحابة طويلة تأملية من الدخان. «عليّ اللعنة إن كنت أعرف! سأكون متأكدًا تمامًا أني تعلمت الحيلة. ثم في اللحظة التالية سأكتشف أني لم أتعلم كل شيء لو أن حياتي اعتمدت عليها».

«حسنا، لا تدع هذا يقلقك. لا أحد يستطيع. ليس من خلال النظر».

«ليس من خلال النظر؟ يعني؟»

«أخشى أني لا أستطيع أن أشرح. ليس بشكل واضح. هنالك طرق.

لكنها ليست محددة أو محسوسة».

«الشعور بصلة القرابة، أو شيء من هذا القبيل؟»

«يا إلهي، لا! لا أحد يملك ذلك الشعور، سوى لأقربائه من جهة الزوج أو الزوجة».

«مفهوم. لكن واصلي حديثك فيما يخص الشياه والماعز».

«حسنًا، خذ تجربتي أنا مع دوروثي تومبكنز. قابلتها أربع أو خمس مرات، في مجموعات وحشود من الناس، قبل أن أعرف أنها ليست سوداء في الأصل. في يوم من الأيام ذهبتُ إلى مكان لأتناول الشاي، مكان طنّان بشكل مروع. دوروثي كانت هناك. تحدثنا. في أقل من خمس دقائق عرفت أنها «بيضاء.» ليس من أي شيء قامت به أو قالته أو من أي شيء يتعلق بمظهرها. شيء وحسب. شيء لا يمكن تسجيله».

«نعم، أفهم ما ترمين إليه. مع ذلك كثير من الناس «يعبرون» طوال الوقت».

«ليس من جانبنا، هيو. من السهل بالنسبة لأسود أن «يعبر» على أنه أبيض. لكني لا أعتقد أنه سيكون من السهل على شخص أبيض أن «يعبر» على أنه ملون».

«لم أفكر قط في هذا».

«ولن تفعل. لماذا يخطر في ذهنك هذا الأمر؟»

نظر إليها بانتقاد من بين سحب الدخان. «تسخرين مني، آيرين؟»

قالت برصانة: «ليس منك يا هيو. أنا مغرمة جدًا بك. كما أنك صدوق

جدًا».

وتذكرت أنه قبل نهاية الرقص جاء إليها براين وقال: «سأوصلك أولا ثم آخذ كلير». وأنه كان شاكًا في حذرها حين أخبرته بأن عليه ألا يهتمّ بأمر كلير لأنها طلبت من بيانكا ونتوورث أن يأخذاها معهما. سألها عما إذا كانت تظن أن من الحكمة إخبارهما عن كلير.

«لم أخبرهما بشيء». قالت بحدة، لأنها كانت مرهقة بشكل لا يطاق. «سوى أنها على شارع وولسنجهام. على طريقهما. كما أني لم أفكر حقًا في حكمة ما فعلت، لكن الآن بما أني فكرت، سأقول إن هما أوصلاها فذلك أفضل من أن توصلها أنت».

«كما تريدين. إنها صديقتك، كما تعرفين». أجاب وهز كتفيه في استنكار.

ما عدا هذه الأشياء القليلة غير المترابطة، تلاشت حفلة الرقص إلى ذكرى مشوشة، تختلط حدودها مع حدود الحفلات الأخرى من نوعها التي حضرتها في الماضي وسوف تحضرها في المستقبل.

٤

لكن الحفلة كانت مهمة على رغم أنها لم تبدُ مميزة. لأنها أصبحت علامة لبداية عامل جديد في حياة آيرين ردفيلد، شيءٍ ترك أثره على كل السنوات المستقبلية لوجودها. كانت البدايةَ لصداقة جديدة مع كلير كندري.

ترددت على منزلهما باستمرار بعد ذلك. دائما يرافقها حبورٌ مؤثر تضخّم حتى فاض ليغشى سكان منزل ردفيلد. بَيْد أن آيرين لم يتسنّ لها أبدًا أن تتأكد مما إذا كان مجيء كلير مصدرَ بهجة أم مصدرَ مضايقة.

بالتأكيد لم تكن مصدر عناء. لم يكن من الضروري تسليتُها، أو حتى ملاحظتها، إذ ما كان بوسع أحد أن يتفادى ملاحظة كلير. لو حدث وكانت آيرين في الخارج أو مشغولة، فإن باستطاعة كلير أن تسلي نفسها مع تيد وجونيور اللذين حملا لها إعجابًا كاد أن يصبح هيامًا، خصوصًا تيد. أو أن تنزل في غياب الولدين إلى المطبخ وتقضي وقت زيارتها في الحديث مع زولينا وسادي واللهو معهما، في افتقار طفولي مستفز إلى البصيرة، حسبما تظن آيرين.

في الأثناء التي تتكتم فيها آيرين على امتعاضها من هذه الزيارات إلى غرفة اللعب والمطبخ، لم تطلب من كلير، ولسبب مبهم تجنّبت ترجمته إلى كلمات، أن تضع حدًا لتلك الزيارات، أو تلمّح إلى أنها ما كان ينبغي لها أن تدلل ابنتها مارجري بفظاعة أو أنها مفرطة في اللطف مع

الخادمتين البيضاوين.

نظر براين إلى هذه الأشياء بنفس التسلية المتسامحة التي ترسم كامل معالم موقفه تجاه كلير. لم يُبدِ أي اعتراض على وجود كلير منذ تفاجئه الساخر قليلاً إذ أعلمته آيرين بأنها ذاهبة معهما ليلة حفلة الرقص. في المقابل لا يمكن الجزم بالقول إن وجودها يسعده فيما يبدو. لم يضايقه أو يزعجه، في ظن آيرين. هذا كل ما في الأمر.

مرة سألته إن كان يظن أن كلير جميلة على نحو استثنائي.

أجاب: «لا. أقصد، ليس بصفة استثنائية».

«براين، أنت تمزح!»

«لا، بصدق. قد أكون متطلبًا. أظن أنها ستكون جميلة بصورة مميزة لو كانت امرأة بيضاء. أحب نسائي داكنات أكثر قليلاً. زدِي على ذلك، أن تكون ملكة سبأ من الطراز الأول، وهذا ما لا تملكه».

ذهبت كلير إلى حفلات وسهرات، أحيانا مع آيرين وبراين، وفي المناسبات القليلة التي لم تستطع فيها آيرين أو لم ترغب في الخروج، ذهبت مع براين بمفردها إما إلى حفلة لعب ورق أو إلى حفلة رقص خيرية.

وبين فترة وأخرى كانت تأتي لتتناول عشاء رسميًا معهما. ولكنها على رغم وقارها ومظهر الأناقة الذي يميزها لم تكن الضيفَ المثالي لحفلات العشاء. فبخلاف المتعة الجمالية التي يحصل عليها المرء من مشاهدتها، كانت مساهمتها في الحديث شحيحةً إذ تجلس معظم الوقت صامتة ترينُ على عينيها الناعستين نظرةٌ حالمة غريبة. مع ذلك كانت قادرة على الحديث بفصاحة وبإمتاع لسببٍ ما يخصها، ألا وهو الرغبة في أن

تشملها دعوة إلى حفلة رقص أو حفلة شاي أو ثلة مجتمعة للذهاب إلى ملهى.

كانت محبوبة بشكل عام. كانت لطيفة ومتجاوبة، وعلى استعداد تام لتوزيع حلاوةِ الإطراء على الجميع. كما لم تمانع من الظهور في جلباب المثيرة للشفقة أو المستغَلة، بحيث يتعاطف معها الناس. ومهما أكثرت من الظهور معهم فإنها بقيت شخصًا منفردًا، يحيط به شيءٌ من الغموض والغرابة، شخصًا يتعجب الناس منه ويُعجَبون به ويشفقون عليه.

لم تكن زياراتها محددة أو أكيدة، كونها كانت تعتمد على ظهور جون بيلو في المدينة أو غيابه. لكنها كانت تنجح من حين إلى آخر في اختلاس زيارة لمساء واحد شمالَ المدينة حتى وإن لم يكن بعيدًا. وبمرور الوقت من دون أي خطر واضح في أن يُكتشف أمرها، توقفت حتى آيرين عن القلق حيال احتمالية أن يعرف بالصدفة زوج كلير عن هويتها العِرقية.

تُركت الابنة، مارجري، في مدرسة في سويسرا، لأن كلير وبيلو سيعودان في بداية الربيع. في مارس، كما كانت كلير تظن. كانت تقول، في تلميح إلى عصيان مكبوح دائمًا: «وكم أكره التفكير في العودة! لكني لا أعرف كيف أتخلص منها. لن يسمح جاك بمكوثي وراءه. لو يكن عندي شهران إضافيان في نيويورك، لوحدي أقصد، فسأكون أسعد مخلوقة في العالم».

قالت لها آيرين يومًا عندما كانت تندب قربَ مغادرتها: «أظن أنك ستكونين سعيدة بمجرد أن تذهبي. تذكري أن هناك مارجري. فكري في سعادتكِ برؤيتها بعد كل هذا الوقت».

أجابت كلير على هذا قائلة: «الأطفال ليسوا كل شيء. هناك أشياء أخرى في العالم، مع أني أقرّ أنه يبدو أن بعض الناس لا يشكّون في

ذلك». وضحكت على نكتة سرية، فيما يبدو، أكثر مما ضحكت على كلماتها.

ردت آيرين: «تعرفين أنك لا تعنين ما قلتِه للتو يا كلير. إنما تحاولين ممازحتي. أعرف تمام المعرفة أني آخذ موضوع الأمومة بجديّة أكبر. أنا مستغرقة في ولديّ وإدارة بيتي. لا أستطيع فكاكًا. ولا أرى حقًا أن في هذا ما يُضحك». وعلى رغم أنها أدركت قليلاً من التصنع في كلماتها وموقفها، لم تكن لديها قوة أو رغبة على إخفائه.

قالت كلير، وقد أضحت فجأة رصينة وعذبة: «معك حق. ليست أمرًا مضحكًا. عار عليّ أن أمازحك هكذا يا رين. أنت امرأة صالحة». ثم مدت يدها وعصرت يد آيرين برقة. أضافت: «لا تظني، مهما يحصل، أني سأنسى قط كم كنتِ طيبة معي».

«هراء!»

«أوه، لكنك كنت طيبة فعلاً. كل ما في الحكاية أني لا أتمتع بالأخلاق المناسبة أو حس المسؤولية الذي تتمتعين به، ما يجعلني أتصرف بالطريقة التي أتصرف بها».

«الآن ما تقولينه هراء».

«لكنه صحيح يا رين. ألا تستطيعين أن تدركي أني لا أشبهك في شيء؟ لأني من أجل الحصول على ما أريد بجنون، أقوم بأي شيء، أجرح أي أحد، أتخلص من أي شيء. حقًا يا رين، أنا لست آمنة». كان لصوتها وللنظرة على وجهها جدية متضرعة جعلت آيرين تشعر بعدم ارتياح غامض.

قالت: «لا أصدق هذا. أولاً ما تقولينه خاطئٌ جدًا، خاطئ بشكل

ضار. أما ما يتعلق بتخلصك من الأشياء..» توقفت، وقد خانها العثور على مصطلح مناسب للتعبير عن طبيعة كلير «التملكية».

لكن كلير كندري بدأت في البكاء، بصوت مسموع، من دون جهدٍ في كبت بكائها، ولسبب لم تستطع آيرين أن تعرف كُنهَه.

الجزء الثالث

النهاية

١

كانت السنة تمضي باتجاه نهايتها. انصرم أكتوبر، ثم نوفمبر. جاء ديسمبر وجاء معه بعض الثلج، فالصقيع، ثم ذاب الجليد، ثم أخيرًا أيامٌ بهيجة لطيفة لها إحساس الربيع.

فكرت آيرين، عندما انعطفت من الجادة السابعة إلى شارعها، أن هذا الطقس المعتدل لم تكن له صبغة عيد الميلاد. لم تحبّذ أن يكون دافئًا وربيعيًا في وقت كان يجب أن يكون فيه باردًا ذا ريح، أو رماديًا وغائمًا، كما لو كان الثلج على وشك أن يتساقط. مثل الناس، الطقس يجب أن يتمثل روحَ الموسم. هنا الإجازات على وشك أن تحلّ، والشوارع التي مشت عبرها كانت مبقعةً بغدرانِ الماء الكدِرة، كما أن الشمس سطعت بدفء كبير لدرجة أن الأطفال نزعوا قبعاتهم وأوشحتهم. كان الجو رائقًا، بقدر ما يكون في أبريل. مثل طقس عيد الفصح. لكنه بالتأكيد ليس مناسبًا لعيد الميلاد.

مع ذلك، أقرّت على مضض، حتى هي نفسها لم تشعر بروح عيد الميلاد المناسبة هذه السنة. لكن لا مفر من هذا، على ما يبدو، على عكس

الطقس. كانت متعبة ومكتئبة. ورغم كل محاولاتها لم تنعتق من البؤس البليد والمبهم الذي استولى عليها بإصرار متزايد. ولم يكن التجوال الصباحي بلا هدف في شوارع هارلم المزدحمة، لوقت طويل بعد أن طلبت الورود التي تذرّعت بها للخروج، سوى محاولة أخرى للانعتاق منه.

صعدت درجات الحجر الكريمي، ودخلت البيت، متجهة إلى المطبخ. كان متوقعًا أن يكون فيه أحدٌ من أجل الشاي. لكن ذلك الشيء، وبعد كلمات قلائل مع سادي وزوولينا، ليس بحاجة إلى أن يُشغلها. كانت شاكرة. لم تكن تريد أن يشغلها شيء. صعدت إلى الأعلى وخلعت ملابسها ثم قصدت سريرها.

فكرت: «ما يهمّ أولئك الناس القادمون من أجل الشاي!»

فكرت: «لو أتأكد فقط أنها في الحقيقة ليست سوى البرازيل».

فكرت: «أيا يكن، لو أعرف فقط ما هو، لاستطعت التعامل معه».

براين من جديد. غير سعيد، وقلق، ومنكفئ على نفسه. وهي، التي طالما فاخرت أمام نفسها بمعرفتها لمزاجاته وأسبابها وعلاجها، وجدت أنه شيءٌ لا يمكن تصوره في البداية، ثم لا يمكن احتماله، ألاّ تدرك أصل هذا الشعور، أن تقبض عليه، شأنه شأن تقلباته المضطربة تلك.

كان قلقًا ولم يكن قلقًا. كان ساخطًا، ومع ذلك تأتي أحيانٌ تشعر فيها أن رضى خفيًا عميقًا يسيطر عليه، مثل قطة سرقت الزبدة. كان سريع الانفعال مع الولدين، جونيور على وجه الخصوص، لأن تيد بمعرفته الحاذقة لفترات مزاج أبيه السيئ يبقى بعيدًا عن طريقه قدر المستطاع. يفقدانه صوابه، ويخرجانه عن طوره إلى نوبات هيجان عنيفة، تختلف

كليًا عن تعليقاته المألوفة الساخرة غالبًا والتي شكلت فكرتَه عن تربيتها. في المقابل، كان معها متفهمًا ومراعيًا أكثر من المعتاد. وقد مرت أسابيع منذ آخر مرة أحست فيها بنصل سخريته الحادّ.

كان مثل رجل يحسب الوقت، منتظرًا. لكن ماذا كان ينتظر؟ كان أمرًا غير عادي أن تعوزها الآن، بعد كل هذه السنين من الإحساس الدقيق، موهبةُ اكتشاف ماذا يعني مظهر الانتظار. ما ملأها فزعًا منذرًا بسوء معرفتُها أن سبب تهكمه، وعقب كل دراستها المتأنية، كل مراقبتها، لا يزال يتملص عن إدراكها. بدا لها ذلك التحفظ الحذر من قبله غير عادل، غير مراع، ومثيرًا للقلق. كما لو أنه خطا أبعد من متناولها إلى منطقة ما، غريبة ومسوّرة، بحيث لا تستطيع الوصول إليه.

أغمضت عينيها، تفكر كم سيكون رائعًا لو نالت من النوم قسطًا قليلاً قبل أن يعود الولدان من المدرسة. لم تستطع بطبيعة الحال، على رغم أنها كانت متعبة جدًا وأنها قضت مؤخرًا عدة ليال أرقة. ليال مليئة بالتساؤلات والهواجس.

لكنها نامت.. عدة ساعات.

استيقظت لتجد براين واقفًا إلى جوارها ينظر إليها، وفي عينيه تعبيرٌ غير مفهوم.

قالت: «لا بد أنني استغرقت في النوم» وشاهدت طيفًا خفيفًا لابتسامته القديمة الساحرة يعبُر وجهه.

قال لها: «وصلت الساعة الرابعة» قاصدًا، كما تعرف، أنها ستتأخر مرة أخرى.

صارعت الإجابة السريعة التي ارتفعت إلى شفتيها وقالت عوضًا عنها:

«سأنهض حالاً. أحسنت صنعًا إذ أيقظتني». وجلست.

انحنى أمامها. «الزوج المهتم دائما كما ترين».

«بكل تأكيد. حمدًا لله، كل شيء جاهز».

«ما عداك. أوه، وكلير في الأسفل».

«كلير! يا للإزعاج! لم أدعُها، عمدًا».

«فهمت. هل من حق رجل عادي أن يسألك لماذا؟ أم أن السبب أنثوي ببراعة لدرجة أنه لن يُفهم؟»

عاد جزء من ابتسامته. قالت آيرين، التي كانت قد بدأت في التخلص من اكتئابها تحت أثر مزاحه، بابتهاج تقريبا: «إطلاقًا لا. إنما صدفَ وأن كانت هذه الحفلة من أجل هيو، وصدف أن هيو لا يهتم كثيرًا لكلير. لذلك، أنا التي صدف وكنت من رتّب الحفلة، لم يصدف وأن دعوتها. لا شيء يمكن أن يكون أسهل من هذا. أليس كذلك؟»

«لا شيء. إنها سهلة جدًا لدرجة أن بوسعي أن أرى بسهولة خلف شرحك المبسط وحدسك أن كلير ربما لم يصدف قط أن تعطي هيو اهتمامَ الإعجاب الذي يصدف وأنه يعتبره حقه الخالص. أسهل شيء في العالم».

هتفت آيرين في ذهول: «اعتقدتُ أنك معجب بهيو! لا تظن، لا يمكن أن تظن، شيئا أحمق كهذا!»

«حسنًا، هيو يعتقد أنه الإله نفسه، كما تعرفين».

أوضحت كلير، ناهضة عن سريرها: «هذا ليس صحيحًا أبدًا. فهو يرى

نفسه أفضل من ذلك بكثير، كما يمكنك أن تخمن، أنت الذي تعرفه وقرأت له. لو تتذكر الرأي الدنيء الذي يحمله عن الإله ما ارتكبت خطأً سخيفًا كهذا».

ذهبت إلى الخزانة لتتجهز وحين عادت علقت فستانها على ظهر كرسي ووضعت حذاءها على الأرض قريبًا منه. ثم جلست أمام التسريحة.

لم يتحدث براين. استمر واقفًا إلى جوار سريرها، دون أن يبدو أنه ينظر إلى مكان معين تحديدًا. لم يكن ينظر إليها. بالتأكيد كان ينظر إليها، غير أن في نظرته ثمة ميزةً جعلتها تشعر أنها لم تكن بالنسبة له في تلك اللحظة أكثر من لوح زجاج يحدق من خلاله. في ماذا؟ لم تعرف، ولم يكن بوسعها أن تخمن. وقد أذهبَ هذا ارتياحَها، أغاظها.

قالت: «كل ما في الأمر أن هيو يفضّل النساء الذكيات».

جفل بوضوح. سأل، وهو يتفحصها بحاجبين مرفوعين أكّدا الإنكار في صوته: «هل تعنين أنك تعتقدين أن كلير غبية؟»

مسحت عن وجهها المسحوق البارد قبل أن تقول: «لا، لا أعني هذا. ليست غبية. إنها ذكية بما يكفي بطريقة أنثوية خالصة. فرنسا في القرن الثامن عشر ستكون بيئةً رائعة لها، أو الجنوب القديم لو لم ترتكب خطأ كونها وُلدت سوداء».

«فهمت. ذكية بما يكفي لترتدي فستانًا ضيقًا وتظل تنحني للعشاق تهمس بالمجاملات وتستقبل المعجبين المنبوذين. صورة جميلة حقًا. مع ذلك أقبلها صورةً غادرة قليلاً في دلالتها».

«حسنًا إذن، كل ما أستطيع قوله هو إنك فهمتها خطأ. لا أحد يعجبه كلير أكثر مني، بسبب نوع الذكاء الذي تتمتع به إضافة إلى خصالها

الزخرفية. لكنها ليست.. لم.. ليست.. أوه، لا أستطيع أن أشرحها. خذ بيانكا، على سبيل المثال، أو لنلتزم بالعِرق، فيليس فريلاند. جمال منظر وذكاء عقل. ذكاء حقيقي بوسعه أن يحتفظ بهيبته أمام الجميع. عند كلير ذكاءٌ من نوع معين، نوع مفيد أيضًا. متعلق بالاكتساب، كما تعرف. لكنها ستُضجِر رجلاً مثل هيو حتى تدفعه إلى الانتحار. مع ذلك لم أتخيل أبدًا أن حتى كلير ستأتي إلى حفلة خاصة لم تُدع إليها. على كل حال، هكذا هي».

ران صمتٌ لمدة دقيقة. أكملت القوس الأحمر القاني فوق شفتيها الممتلئتين. تقدم براين في اتجاه الباب. أسند يده على مقبض الباب. قال: «أنا آسف يا آيرين. خطئي بالكامل. تبدو مكلومة جدًا بسبب تركها وحيدة لدرجة أني أخبرتها أنك لا بد وأنْ نسيتِ ثم دعوتُها للمجيء».

صاحت آيرين: «لكن براين، أنا..» ثم توقفت، مشدوهة بسبب الغضب العارم الذي اشتعل داخلها.

دار رأسُ براين في هزة، وارتفع حاجباه في اندهاش غريب.

أدركت أن صوتها قد غدا غريبًا. لكن لديها شعورًا غريزيًا بأنه ليس السببَ الحقيقي لموقفه. وتلك الحركة الصغيرة المسوّية للكتفين. ألم تكن مثل حركة رجل يتراجع بنفسه ليتلقى لكمة؟ خوفها كان مثل رمح قرمزي من الرعب يثِبُ على قلبها.

كلير كندري! هكذا إذن! مستحيل. لا يمكن أن يكون.

في المرآة التي أمامها رأت أنه ما زال ينظر إليها بطريقة مضحكة بعض الشيء. خفضت عينيها إلى القناني والعلب على الطاولة وبدأت تتحسس محتوياتها بيدين تلعثمت أصابعهما قليلاً.

قالت بعناية: «أنا سعيدة بالطبع لأنك دعوتها. وعلى الرغم من تعليقاتي الأخيرة، فإن كلير تضيف إلى كل حفلة. لها حضور جذاب جدًا».

عندما نظرت من جديد، كانت الدهشة قد رحلت عن وجهه، كما رحل الترقب عن سلوكه.

قال موافقًا: «صحيح، حسنًا، أظن أني نازل. لا بد أن يكون أحدنا في الأسفل، كما أرى».

«معك حق. يجب أن يكون أحدنا في الأسفل». كانت مندهشة من أنها تحدثت بنبرة طبيعية، في وقت انقبض فيه قلبها لأن ذلك الخوف الغامض المبهم قد نما بغتة إلى ذعر حاد. وعدت: «سأكون في الأسفل خلال دقائق».

«جميل». لكنه توانى. «هل أنت متأكدة تمامًا؟ ألا تمانعين دعوتي لها؟ ليس بشكل كبير، أعني؟ أرى الآن أنه كان يتعين علي أن أخاطبك أولاً. أثق بأن للنساء منطِقًا في كل شيء».

تظاهرت بالنظر إليه قليلاً، وقدرت على ابتسامة ضئيلة، ثم أشاحت بوجهها. كلير! يا له من أمر مقزز!

«صحيح، ألسن كذلك؟» قالت، مجاهدةً على أن تبقي صوتها عاديًا. في داخلها أحست لشعورها قسوةً، ليس في غيابه، وإنما في كبته. وكانت القسوة تكبر، تنتفخ. لماذا لم يذهب؟ لماذا لم يذهب؟

فتح الباب أخيرًا. سأل معاتبًا: «لن تتأخري؟»

هزت رأسها، غير قادرة على الكلام، لأن في حلقها اختناقًا، والحيرة في ذهنها كانت مثل خفق أجنحة. من ورائها سمعت الصوت اللطيف

للباب إذ أغلق خلفه، فعرفت أنه ذهب. إلى الأسفل، إلى كلير.

جلست في عناد متوتر لمدة دقيقة طويلة. اختفى عن ناظرها الوجهُ الذي في المرآة، وقد محاه هذا الشيءُ الذي برق بصورة فجائية في ذهنها المتسائل. كان عصيًا على التعبير عنه في الحال بكلماتٍ أو رسمِ حدود له، لأن دافعًا لحماية نفسها قد حضّها على التراجع عن ذلك الشعور نفسه.

أغمضت عينيها الغائمتين وقبضت كفيها. حاولت ألا تبكي. لكنها زمّت شفتيها ولم يفلح جهدٌ في إمساك دموع الغيظ والعار الحارة التي طفرت من عينيها وسالت عبر خديها، وهكذا وضعت وجهها بين يديها وبكت في صمت.

عندما تأكد لها أنها انتهت من بكائها مسحت ما تبقى من دموع دافئة ونهضت. بعد غسل وجهها المنتفخ بماء بارد منعش ورش دفقة من ماء المرحاض، عادت إلى المرآة وتأملت وجهها باهتمام. وبعد أن اقتنعت أنه لم يبق دليلٌ فاضحٌ على البكاء رشت قليلاً من المسحوق على وجهها الأبيض، ثم فحصته من جديد بعنايةٍ وشيءٍ من الازدراء المتهكم.

أسرّت لنفسها: «أعتقد أنك كنت شيئًا.. أوه، بل حمقاء ملعونة».

في الأسفل وفّر لها طقسُ الشاي لحظاتٍ مشغولة، الأمر الذي اعتبرته نعمة. لم تُرِدْ مساحات فارغة من الوقت قد يعود فيها ذهنها مباشرة إلى ذلك الهلع الذي لم تجمع بعدُ شجاعةً كافيةً لمواجهته. كان صبُّ الشاي بطريقة ملائمة ولطيفة نشاطًا يتطلب نوعًا من الاهتمام المتزن.

في الغرفة الخلفية دقت ساعة. نغمة منفردة. خمس عشرة دقيقة بعد الخامسة. هذا كل شيء! ومع ذلك في غضون نصف ساعة تغيرت كل الحياة، فقدت لونها، فقدت حيويتها، معناها الكامل. فكرت، لا، لم

يحدث ذلك. فالحياة من حولها، كما يبدو، استمرت كما كانت عليه تمامًا.

«أوه، سيدة رانيون ... أسعدني لقاؤك ... اثنان؟ ... حقا؟ ... يا له من شيء ممتع! ... نعم، أعتقد أن الثلاثاء مناسب ...»

أجل، استمرت الحياة تمامًا كما كانت عليه من قبل. إنما تغيرت هي وحدها. غيّرتها معرفةُ هذا الشيء، إدراكه. كما لو أُشعل عودُ ثقاب في بيتٍ شديد الإعتام، مظهرًا أشكالاً شبحية حيث لم يكن سوى ظلال مشوشة.

ثرثرة، ثرثرة، ثرثرة. سألها أحدهم سؤالاً. رفعت بصرها مع ما ظنّته ابتسامةً جامدة.

«نعم ... جاء بها براين الشتاء الماضي من هاييتي. غريبة جدًا، أليس كذلك؟ ... بل عجيبة وبشعة ... ليس كثيرًا، كما أظن. بضعة سنتات ...»

بشع. غشاها سأمٌ عظيم. حتى الجهد الضئيل الذي تبذله في صَبّ الشاي الذهبي في أكواب نحيفة قديمة بدا لها أكثر بكثير من احتمالها. ظلّت تصب. وزعت نسخًا مكررة من ابتسامتها. أجابت على أسئلة. اصطنعت محادثات. فكرت في نفسها: «أشعر وكأني أكبر شخص في العالم مع أطول امتدادٍ من الحياة أمامي».

«جوزفين بيكر؟ ... لا، لم أرها ... ربما كانت في عرض Shuffle Along عندما شاهدته، لكن لو كانت، لا أتذكرها ... أوه، لكنك مخطئة! ... أنا أعتقد أن إيثل ووترز جميلة بشكل استثنائي ...»[1]

(1) Shuffle Along أول مسرحية غنائية ينتجها أمريكان من أصول إفريقية، عُرضت في برودواي وحققت نجاحًا واسعًا. المترجم

كانت هناك الأصوات المألوفة الخفيفة لرنين الملاعق إذ تصطدم بالأكواب سهلة الكسر، وأصوات الحديث التافه المتواصلة برتابة، يتخللها الضحكُ بين الفينة والأخرى. في مجموعات صغيرة غير منتظمة، متفككة، متداخلة، داقة نغمة النشاز نفسها، أوهمت الفوضى في الغرفة الكبيرة، التي أثثتها آيرين باقتصاد غير مبالغ في الزخرف، أوهمت الضيوفَ بتلك الألفة البسيطة التي تجعل من حفلةٍ نشاطًا ناجحًا. على الأرض والجدران ألقت الشمسُ الغاربة ظلالاً طويلة خيالية.

تشبه تماما كثيرًا من حفلات الشاي التي حضرتْها من قبل إذن. ولا تشبه أبدًا أي واحدة من تلك الحفلات. غير أنها لا ينبغي أن تفكر الآن. ثمة ما يكفي من الوقت لهذا لاحقًا. كل الوقت في العالم. ومضت في ثانيةٍ معرفةُ ما قد تشي به هذه الكلمات. وقتٌ مع براين. وقتٌ من دونه. ذهب مخلّفًا في مكانه رغبة تكاد تستعصي على السيطرة في الضحك، في الصراخ، في قذف الأشياء في كل اتجاه. أرادت فجأة أن تُذهل الناس، أن تؤذيهم، أن تجعلهم يلاحظونها، يدركون معاناتها.

«مرحبًا، ديف ... فيليس ... ملابسك مصدر إحباط لنصف النساء في هارلم ... كيف تصنعينها؟ ... جميل، من عند وورث أم من عند لانڤان؟ ... أوه، من باباني فقط ...»

«من باباني فقط». اعترفت فيليس فريلاند. «ما بال مزاجكِ يا آيرين؟ تبدين مثل حفّار قبور».

«أشكرك على التلميح يا فيليس. لا أشعر بأني على ما يرام. الطقس، أظن».

«اشتري لنفسك فستانًا جديدًا غاليًا يا فتاة. إنه يساعد دائمًا. كلما يصيب

الفتاةَ التي أمامك الحزنُ، يعني أن النقود ستخرج من جيب ديف. كيف حال ولديك؟»

الولدان! لوهلة نسيتْ أمرهما.

أخبرت فيليس أنهما بخير. تمتمت فيليس بكلمات عن كون هذا الشيء رائعًا جدًا، ثم قالت إن عليها أن تذهب، لأنها —ويا للعجب— رأت السيدة بيلو تجلس لوحدها «وأنا كنت أحاول أن أدعها بمفردها طوال المساء. أريدها في حفلة ما. ألا تبدو مذهلة اليوم؟»

كانت كلير كذلك بالفعل. لم تتذكر آيرين أنها قد رأتها من قبلُ أجمل مما هي عليه الآن. كانت ترتدي فستانًا بُنيًا بلون القرفة مفرطًا في البساطة، أظهر كل جمالها الزاهي، وقبعة ذهبية عالية الظُلّة. حول عنقها تدلت سلسلةٌ من الخرز الكهرماني تعادل في قيمتها ستة أو ثمانية أضعاف تلك التي تملكها آيرين. أجل، كانت مذهلة.

تدفق موج الحديث. هدرت النار. استطالت الظلال أكثر.

في الجهة المقابلة من الغرفة كان هيو. أملت آيرين أنه لم يكن يشعر بالسأم. بدا مثلما كان دائمًا، متحفظًا بعض الشيء، مسرورًا بعض الشيء، ومرهَقًا على نحو ما. وكالمعتاد كان يحوم حول رفوف الكتب. لكنه، حسبما لاحظت، لم يكن ينظر إلى الكتاب الذي أخذه. بدلاً من ذلك، استولى على عينيه الكهرمانيتين الباهتتين شيءٌ آخر عبر الغرفة. كانتا مليئتين تقريبًا بالاحتقار. حسنًا، لم يهتم هيو قطّ بكلير كندري. لدقيقة ترددت آيرين، ثم أدارت رأسها، على رغم أنها كانت تعرف ما الذي سيطر على نظرة هيو. كلير، التي سربلت فجأةً كل أيامها بالعار. براين، والد تيد وجونيور.

كان وجه كلير العاجي على ما كان عليه دائمًا، جميلاً ولطيفًا. أو لعله اليوم كان مقنَّعًا قليلاً. غير كاشف. لا تغيره أية عاطفة ولا تربكه، لا لها ولا لمن حولها. وجه براين بدا لآيرين عاريًا بشكل مثير للرثاء. أو هل كان أيضًا مثلما كان عليه دائمًا؟ تلك النظرة الباحثة نصف المطموسة، هل كان يملكها دائمًا؟ غريبٌ أنها الآن لم تعرف، لم تستطع أن تتذكر. ثم رأته يتبسم، فجعلت الابتسامة كامل وجهه ساطعًا ومتحمسًا. وإذ دفعتها رغبةٌ داخلية نابعة من إخلاصها لنفسها، أشاحت بوجهها بعيدًا. لكن للحظةٍ فقط. عندما ردت إليهما بصرها خالت أن النظرة على وجهه أكثر كآبةً، وفي الوقت ذاته أكثر تهكمًا، رأتها قط على ذلك الوجه.

في ربع الساعة التالية قطعت وعدا بزيارةٍ لبيانكا ونتوورث في الشارع الثاني والستين، ولجين تينانت في تقاطع الجادة السابعة مع الشارع المئة والخمسين، ولعائلة داشيلد في بروكلين للعشاء، جميعهم في نفس المساء وفي نفس الساعة تقريبًا.

ماذا يهمّ، على أية حال؟ ليس لديها أفكارٌ إطلاقًا الآن، وكل ما شعرت به إرهاقٌ عظيم. أمام عينيها كانت كلير كندري تتحدث مع ديڤ فريلاند. سافرت إليها نتفٌ من محادثتهما، بصوت كلير الأجش: «... لطالما كنت معجبة بك ... الجميع يقولون هذا ... ليس من أحد سواك ...» وأشياء من هذا القبيل. طرب الرجل لكلماتها، على رغم أنه زوج فيليس فريلاند، ومؤلف روايات كشفت عن رجل بإدراك عميق وحس دعابة قاتل. وأوقعه هذا الهراء! كل هذا لأن كلير تبرع في الإطراف بجفونٍ عاجية تعلو عينين سوداوين مذهلتين ثم رفعِها فجأة ورسمِ ابتسامة لطيفة. يقع في شِراكها رجالٌ مثل ديڤ فريلاند. وبراين.

تقهقر تعبها النفسي والبدني. براين. ماذا يعني هذا؟ كيف سيؤثر عليها وعلى الولدين؟ الولدان! دهمتها موجةُ ارتياح. انحسر ما بها، اختفى.

أعقبه شعورٌ عميق بعدم الاهتمام. في واقع الأمر، لم تكن محسوبة. كانت، بالنسبة له، مجرد أم ولديه. هذا كل شيء. لوحدها كانت لا شيء. بل أسوأ من ذلك. كانت عقبة.

غلى الغضب في داخلها.

كانت هناك حادثة تحطم خفيف. على الأرض عند قدميها استقر الكوب المتهشم. بقع داكنة لطخت السجادة فاتحة اللون. توقفت الثرثرة. استؤنفت. أمامها جمعت زولينا الشظايا البيضاء.

جاءها صوت هيو ونتوورث الحاد كما لو من بُعد، على رغم أنه كان لصقَها على نحو عجيب. قال معتذرًا: «آسف، لا بد أني دفعتك. يا لي من أخرق. لا تخبريني أنه لا يقدر بثمن وأنه لا يمكن الاستغناء عنه».

آلمها. يا إلهي! كيف آلمها هذا الشيء! لكنها لم تستطع أن تفكر فيه الآن. ليس في وقت يقف فيه هيو هناك يدمدم أعذارًا وأكاذيب. أيقظ فيها مغزى كلماته وقوة بصيرته إحساسًا بالحذر. تمرد كبرياؤها. اللعنة على هيو! لا بد وأن تقوم بشيء حياله. فورًا. لم تكن أمامها حيلةٌ في منعه من معرفته. فات الأوان. لكنها تستطيع، وستخفي عنه حقيقة أنها تعرف. تستطيع أن تحتمل هذا وستفعل. مضطرة. إنهما ولداها. أضحى كامل جسدها مشدودًا. في تلك الثانية أدركت أنها تستطيع أن تحتمل أي شيء، ولكن فقط عندما يعرف أي أحد أن لديها ما تستطيع أن تحتمله. هذا مؤلم. أرعبها لكنها تستطيع أن تحتمله.

التفتت إلى هيو. هزت رأسها. رفعت عينين بريئتين داكنتين إلى عينيه الباهتتين المهمومتين. احتجت: «أوه.. لا، لم تدفعني. استعد لسماع الحقيقة، وسأخبرك كيف حدث».

«موافق».

«هل لاحظت ذلك الكوب؟ حسنًا، أنت محظوظ. لقد كان أبشع شيء امتلكه أجدادك قط، أولئك الكونفدراليون الساحرون. نسيت قبل كم ألف من السنين امتلكه الجد الثالث لبراين. لكن له تاريخًا عتيقًا. جيء به إلى الشمال عن طريق قطار الأنفاق. أوه، جميل! كن إنـگليزيا لو أحببتَ وسمّه الأندرگراوند. ما أريد الوصول إليه هو حقيقة أني لم أجد طريقة للتخلص منه إلا منذ خمس دقائق. نزل عليّ إلهامٌ. كل ما كان علي فعله هو أن أكسره، وهكذا تخلصت منه إلى الأبد. بهذه البساطة! ولم أفكر في هذا قطّ من قبل».

أومأ هيو وامتدت ابتسامته المثلجة على ملامحه. هل أقنعتْه؟

واصلت مع ضحكة صغيرة كانت متأكدة أنها لم تبد متكلفة إطلاقًا: «مع ذلك، أنا على كامل الاستعداد أن أنحى عليك باللوم وتعترف بأنك دفعتني في اللحظة الخاطئة. ما نَفْعُ الأصدقاء إن لم يساعدوننا في تحمل خطايانا؟ وسيُقال لبراين بكل تأكيد إنه كان خطؤك. مزيدًا من الشاي، كلير؟ ... لم أجلس معكِ دقيقة... صحيح، إنها حفلة جميلة... ستجلسين حتى العشاء كما آمل؟ ... أوه، مؤسف جدًا! ... سأكون لوحدي مع الولدين إذن... سيؤسفهما. لدى براين اجتماع طبي أو ما شابه... ترتدين فستانًا رائعًا... أشكرك... حسنًا، مع السلامة، أراك قريبًا، آمل ذلك».

دقت الساعة. واحدة. اثنتان، ثلاثة. أربعة. خمسة. ستة. أمضت ساعة أو أكثر قليلاً منذ أن نزلت إلى الشاي؟ ساعة واحدة سريعة.

«لا بد أن تذهبي؟ ... مع السلامة... شكرًا جزيلاً... سررت بمقابلتك كثيرًا... نعم، الأربعاء... حبي لمادج... آسفة، لكني مشغولة تمامًا يوم

الثلاثاء... أوه، حقا؟ ... نعم... مع السلامة... وداعًا...»

مؤلم. مؤلم حد الجنون. لكنه لا يهم، لو لم يعلم أحد. لو كان بإمكان كل شيء أن يستمر كما كان. لو ظل الولدان آمنين.

مؤلم جدًا.

لكنه لا يهمّ.

٢

غير أنه يهمّ. يهمّ أكثر من أي شيء كان مهمًا في يوم من الأيام.

يا للمرارة! أن يتضاءل الخوف الواحد، الشك الواحد، الذي شعرت به، ألا وهو توق براين إلى الانتقال إلى مكان آخر، أن يتضاءل ذلك إلى تفاهة صبيانية! وتتضاءل معه ميزةُ الشجاعة والتصميم الذي واجهته به. تملصت من التصورات والمخاطر التي أصبحت تدركها الآن. لأنه لم تكن لديها شجاعةٌ لمواجهتها أو علاجٌ. عبثًا حاولت أن تقمع المعرفة التي انبثقت منها هذه الفوضى داخلها، والتي لا تجد في نفسها قدرة على تهدئتها أو تلطيفها. ونجحت بشكل جزئي.

ظلت تتأمل، ما الذي كان هناك، لحظتها أو قبل ذلك، ليثبت أنها كانت ولو شبه محقّة في الوصول إلى الفكرة الموجعة؟ لا شيء. لم تر شيئًا، ولم تسمع شيئًا. لم تكن لديها حقائق أو براهين. إنما كانت تقود نفسها إلى الشقاء بسبب شكٍ لا أساس له من الصحة. كانت حالة من البحث عن العناء والعثور عليه بنجاح. باختصار.

مع هذا التأكيد الذاتي أنها لا تملك معرفة حقيقية، ضاعفت جهودها لتطرد من ذهنها فكرة العهود المنقوضة والمواثيق المهجورة المقلقة، والتي تجيء مع كل تصورٍ ذهني لكلير أو براين. لم تستطع، لن تستطيع، خوض العذاب المضني الذي يقبع وراءها تمامًا من جديد.

قالت لنفسها، يجب أن تكون عادلة. طوال حياتها الزوجية لم يكن لديها أدنى سبب في الشك بخيانة زوجها، بأي مغازلة جادة حتى. لو، وشكّت في هذا، كانت له ساعاته من السلوك الشاذ الخارجي، لم تكن على علم بها. لماذا تبدأ الآن في افتراض وجودها؟ واستنادًا إلى لا شيء محسوس أكثر من فكرة قفزت إلى ذهنها لأنه أخبرها أنه دعا صديقة، صديقة لها هي، إلى حفلة في بيته. وفي وقت كانت فيه على الأرجح نائمة أكثر مما هي متيقظة. كيف لها أن تحكم عليه بالذنب بسهولة كبيرة، من دون أي شيء فُعل أو قِيل، أو لم يُفعل أو يُقال؟ كيف لها أن تكون مستعدة للتنازل عن قيمة حياتهما سويًا؟

حتى وإن كان هناك، بالمصادفة، شيء صغير.. حسنًا، ما الذي سيعني؟ لا شيء. فهناك الولدان. وهناك جون بيلو. التفكير في هؤلاء الثلاثة أعطاها قدرًا لا بأس به من الارتياح. لكنها لم تواجه المستقبل وجهًا لوجه. أرادت ألا تشعر بشيء، ألا تفكر بشيء، بل أن تؤمن ببساطة أن كل الأمر اختلاقٌ سخيف من جانبها. مع ذلك لم تستطع. حقًا لم تستطع.

عيد الميلاد، بغير واقعيته، باندفاعه المحموم، ببهجته الزائفة، أتى ورحل. شعرت آيرين بامتنانٍ لاضطراب الموسم الحائر. مللهِ، حشوده، تكرار ودّياته التافهة والمنافقة، حالت بينها وبين تأمل تعاستها المتزايدة.

شعرت بامتنان أيضًا لغياب كلير المتواصل، التي انسحبت برجوع جون بيلو من إقامة طويلة في كندا إلى حياتها الأخرى، بعيدة ويتعذر الوصول إليها. لكن الفكرة الخيالية المُنحّاة جانبًا بأن كلير كندري على رغم غيابها ما تزال حاضرة، ما تزال قريبة، ضربت على حائط سجن أفكار آيرين.

براين أيضا انسحب. احتوى البيتُ نفسَه الخارجية وحاجياته. كان يأتي

ويذهب بغرابته المعتادة من دون ضجة. جلس أمامها على طاولة. نام في غرفته إلى جوار غرفتها ليلاً. لكنه كان بعيدًا ويتعذر الوصول إليه. لم يُجْدِ التظاهرُ بأنه كان سعيدًا، بأن الأمور على نفس ما كانت عليه دائمًا. لم يكن هو كذلك، ولم تكن الأمور كذلك. مع هذا، أكدت لنفسها، ليس بالضرورة أن تكون الأمور كذلك بسبب أي شيء يتعلق بكلير. بل كانت، لا بد أن تكون، شكلاً آخر لتوقِه القديم.

لكنها كانت تتمنى أن لو كان الوقت ربيعًا، مارس، بحيث تكون كلير مُبحِرة، بعيدًا عن حياتها وحياة براين. على رغم أنها توصلت قريبًا إلى الاعتقاد بأنه لم تكن بين هذين الاثنين سوى صداقة سخية، كانت متعبة من كلير كندري. أرادت أن تتخلص منها، ومن جيئاتها وذهابها الماكر. لو يحدث شيء ما، شيء يجعل جون بيلو يقرر أن يقدّم الرحلة أو يُبعِد كلير. أي شيء. لا يهمها كيف يكون. حتى وإن كانت ابنتها مارجري مريضة أو تحتضر. حتى وإن اكتشف بيلو...سحبت نفسًا عميقًا وحادًا. ولوقت طويل جلست محدقة إلى الأسفل في اليدين في حجرها. غريب، كيف أنها لم تدرك من قبل كيف يمكن لها بسهولة أن تبعد كلير عن حياتها! كل ما عليها أن تخبر جون بيلو أن زوجته... لا. ليس هذا! لكن إن كان لزامًا أن يعرف عن هذه الزيارات إلى هارلم.. لِمَ تتردد؟ لماذا تنقذ كلير؟

لكنها تراجعت عن فكرة إخبار ذلك الرجل، زوج كلير كندري الأبيض، بأي شيء قد يقوده إلى الشك بأن زوجته سوداء. ولن تكتب السر في رسالة، أو تذكره في الهاتف، أو تخبره لأحد ليبلغه.

عَلِقت بين ولاءين، مختلفين، ومع ذلك متشابهين. نفسها. عِرقها. عِرق! الشيء الذي يقيدها ويخنقها. مهما تأخذ من خطوات، أو لم تأخذ على الإطلاق، فإن شيئًا ما سيُسحق. إما شخص وإما العرق. إما كلير،

.أو هي نفسها، أو العرق. أو ربما ثلاثتهم جميعًا. تخيلت أنه لا شيء أبدًا يمكن أن يكون أكثر سخرية.

وهي جالسة لوحدها في غرفة المعيشة الهادئة على ضوء النار اللطيف، تمنّت آيرين ردفيلد، ولأول مرة في حياتها، أن لو لم تولد سوداء. لأول مرة عانت وتمردت لأنها لم تكن قادرة على تجاهل حِمل العرق. بكت بصمت، كان يكفي أن تعاني كامرأة، كفرد، على حسابها الخاص، من دون أن تضطر إلى تعاني من أجل العرق أيضًا. معاناة وحشية، وغير مستحقة. بكل تأكيد، لم يُلعن أناس آخرون مثلما لُعن أبناء حام الملونون.

على أية حال، لم يمنعها ضعفها، تراجعها، عجزها على استيعاب الشيء، من التمني بحماس أن يكتشف جون بيلو، بطريقة لا دخل لها فيها، ليس أن في دم زوجته لطخةً من لون القطران—لا، لم ترد آيرين هذا—بل أنها كانت تقضي كل الوقت الذي يكون فيه خارج المدينة في هارلم السوداء. فقط هذه المعلومة. ستكون كافية لتخليصها من كلير كندري إلى الأبد.

٣

كما لو استجيبت أمنيتها، وجدت آيرين نفسها في اليوم التالي وجها لوجه أمام بيلو.

كانت قد ذهبت إلى وسط المدينة مع فيليس فريلاند للتبضع. كان النهار باردًا بشكل استثنائي، هبت فيه رياح قوية أضافت إلى خدَّي فيليس الذهبيين الناعمين مسحة بلون أحمر غسقي وإلى عينَي آيرين البنيتين نداوة لطيفة.

انعطفتا من الجادة السابعة إلى الشارع السابع والخمسين، وقد تشبثت إحداهما بالأخرى، مُميلتين رأسيهما بعكس اتجاه الرياح. قذفتهما عصفةٌ مفاجئة عند زاوية تقاطع الشارعين بسرعة غير متوقعة، فاصطدمتا برجل.

«عذرًا»، توسلت آيرين ضاحكة، ورفعت بصرها إلى وجه زوج كلير كندري.

«السيدة ردفيلد!»

طارت قبعته. مد يده، مبتسمًا بحرارة.

لكن الابتسامة تلاشت دفعة واحدة. علت ملامحَه المفاجأةُ، والشك، و.. هل كان الإدراك أيضًا؟

عرفت آيرين، أنه استوعب وجود فيليس التي لا تزال ذراعها متعلقة بذراعها، ذهبية، بشعر زنجي أسود متجعد. أصبحت متأكدة الآن من الفهم الذي ارتسم على وجهه، إذ نظر إليها مرة ثانية ثم من جديد إلى فيليس. مع استياء.

مع ذلك لم يسحب يده الممدودة. ليس دفعة واحدة.

لكن آيرين لم تأخذها. غريزيًا استحال وجهُها قناعًا، عند أول نظرة إدراك. لحظتئذ رمقته بنظرة غير متفهمة تمامًا، متسائلة قليلاً. ولما رأت أنه ما يزال واقفًا ويده ممدودة، أعطته تلك التحديقة الهادئة المخبرة التي تحتفظ بها للمترددين، ثم سحبت فيليس.

تشدقت فيليس: «آها! كنت «عابرة» أليس كذلك؟ حسنًا، لقد راودني الشك في ذلك».

«نعم، ويؤسفني أنك فعلت».

«لماذا، آيرين ردفيلد! تبدين وكأنك تكترثين كثيرًا. أنا آسفة».

«أكترث، ولكن ليس للسبب الذي تظنين. لا أعتقد أني قد غيرت هويتي في حياتي قط إلا من أجل الراحة، مطاعم، تذاكر مسرح، وأشياء من هذا القبيل. أعني أنه ليس على المستوى الاجتماعي، ما عدا مرة واحدة. وقد مررتِ للتو بالشخص الوحيد فقط الذي قابلته متنكرةً على أني امرأة بيضاء».

«مؤسف بشكل فظيع. تأكدي أن خطيئتك ستعثر عليك في نهاية المطاف. هكذا يجري القول».

«أودّ لو أنها تعثر عليّ. سيُفرحك هذا. لكنها لن تفعل».

جاءت ضحكة فيليس غير مكترثة بفتور مثلما كان صوتها الفاتر. «هل يعقل أن آيرين الصادقة تُقدم على.. أوه، انظري إلى ذلك المعطف! هناك. الأحمر. أليس بديعًا؟»

كانت آيرين تفكر: «جاءتني الفرصة ولم أنتهزها. كان علي أن أتكلم وأقدّمه إلى فيليس بالتعليق المعتاد أنه زوج كلير. لا أكثر من ذلك ولا أقل. حمقاء. حمقاء». ذلك الولاء الغريزي للعِرق. لماذا لم يكن بوسعها التخلص منه؟ لماذا يجب أن يشمل كلير؟ كلير التي لم تُظهر سوى قليلٍ من الاكتراث والاعتبار لها ولعرقها. لم يكن ما شعرت به امتعاضًا بقدرِ ما كان يأسًا بليدًا لأنها لا تستطيع أن تغير نفسها بهذا الخصوص، لا تستطيع أن تعزل الأفراد عن العرق، نفسها عن كلير كندري.

«دعينا نذهب إلى البيت فيليس. أشعر بإرهاق شديد لدرجة أني قد أسقط».

«لماذا؟ لم ننتهِ حتى من نصف الأشياء التي خططنا لها».

«أعرف، لكن الجو بارد جدًا على المشي في وسط المدينة. لكن يمكنك البقاء هنا لو أردت».

«أظنني سأفعل، إن لم يكن لديك مانع».

والآن واجهت آيرين معضلة أخرى. يتعيّن عليها أن تخبر كلير بهذا اللقاء. تحذرها. ولكن كيف؟ لم ترها منذ أيام. لم تكن الكتابة لها أو الاتصال بها خيارين آمنين على السواء. وحتى لو غدا التواصل معها ممكنًا، أي نفع سيجرّه ذلك؟ إن لم يستنتج بيلو أنه قد اقترف خطأً، إن كان متأكدًا من هويتها —وهو ليس مغفلاً— فلن يغيّر إخبارُ كلير

نتائجَ المقابلة. إضافة إلى ذلك، لقد حصل ما حصل، وما يخبئه القدر لكلير كندري قد أدركها بالفعل.

كانت آيرين على وعي بشعور امتنان مريح لدى التفكير بأنها تخلصت على الأرجح من كلير، ومن دون أن ترفع إصبعًا أو تتفوه بكلمة واحدة.

لكنها نوت أن تخبر براين عن لقائها بجون بيلو.

غير أن ذلك بدا مستحيلاً. غريبًا. كبحَها شيء ما. كلما أوشكت أن تقول: «التقيتُ اليوم زوجَ كلير عرَضًا على شارع في وسط المدينة. أنا على يقين بأنه عرفني، وكانت فيليس برفقتي» لم تستطع. كان لهذه العبارة وقعُ التحذير الذي أرادت أن يكون لها. لم تستطع ولا حتى في حضور الولدين على العشاء أن تذكر الخبر، مجرد الخبر.

انسحب المساء. في الأخير ألقت تحية النوم وصعدت إلى الأعلى، من دون أن تنبس ببنت شفة.

فكرت: «لماذا لم أخبره؟ لماذا لم أفعل؟ لو جرّ هذا الصمتُ مشاكلَ فلن أغفر لنفسي أبدًا. سأخبره عندما يصعد».

التقطت كتابًا، إلا أنها لم تستطع القراءة، لأن هاجسًا مجهولاً كان يضطهدها.

ماذا لو أن بيلو سيطلّق كلير؟ هل سيفعل؟ حدث هذا لعائلة راينلاندر. لكن في فرنسا، في باريس، من السهل فعلُ أمور كهذه. لو طلقها —لو غدت كلير حُرة— من بين كل الأشياء التي قد تحصل، هذا ما لم ترده آيرين على وجه التحديد. يجب أن تنأى بذهنها عن تلك الاحتمالية. يجب أن تفعل.

ثم جاءت فكرةٌ حاولت أن تصرفها بعيدًا. لو أن كلير ستموت! حينها... أوه، من الخسة أن تفكر بذلك، أن تتمنى ذلك! شعرت بالدوار والحمّى. لكن الفكرة بقيت معها. لم يكن بوسعها التخلصُ منها.

سمعت الباب الخارجي يفتح. يغلق. لقد خرج براين. أدارت وجهها إلى وسادتها لتبكي. غير أن الدموع لم تنزل.

استلقت هناك متيقظة، تفكر في أشياء من الماضي. في علاقتها وزواجها وولادة جونيور. في الوقت الذي ابتاعا فيه المنزل الذي عاشا فيه طويلاً وفي سعادة كبيرة. في الوقت الذي تغلب فيه تيد على أزمة الالتهاب الرئوي وتأكدوا من أنه سيعيش. وفي ذكريات أخرى حلوة ومؤلمة لن تعود مرة أخرى.

أرادت أكثر من أي شيء، بل سعت، أن تُبقي على روتين حياتها اللطيف بعيدًا عن أي اضطراب. والآن أتت إليه كلير كندري ومعها خطرُ زعزعة ذلك الروتين.

دعت: «أرجوك يا إلهي، عجّل بمارس».

وشيئًا فشيئًا غشاها النوم.

٤

جلب صباحُ اليوم التالي معه عاصفة ثلجية استمرت طوال اليوم.

عقب الإفطار، الذي تناولته في صمت تقريبًا وشعرت بارتياح لأنها انتهت منه، تريّثت آيرين ردفيلد لبعض الوقت في ردهة الطابق الأرضي مرسلة بصرها إلى تهادي النُّدف الناعمة إذْ تسقط في الخارج. كانت تراقبها وهي تملأ مباشرة بعض الفراغات البشعة غير المنتظمة التي تتركها أقدام المشاة المستعجلين عندما جاءت إليها زولينا، وقالت: «الهاتف يا سيدة ردفيلد. إنها السيدة بيلو».

«خذي منها رسالة زولينا، أرجوك».

على رغم أنها واصلت التحديق إلى خارج النافذة، لم تعد آيرين ترى شيئًا الآن وقد وخزها الخوف.. والأمل. هل حدث أي شيء بين كلير وبيلو؟ وإن حدث، ما هو؟ وهل ستتحرر أخيرًا من قلق الأسابيع الماضية الموجع؟ أم أنْ سيأتي ما هو أكثر منه، وأسوأ؟ مرت بلحظة صراع بدا خلالها أنها يجب أن تلحق مسرعة بزولينا وتسمع بنفسها ما تريد أن تقوله كلير. غير أنها انتظرت.

قالت زولينا لمّا عادت: «تقول يا سيدتي، إنها ستستطيع الذهاب إلى منزل السيدة فريلاند الليلة. ستكون هناك في أي لحظة ما بين الثامنة والتاسعة».

«شكرًا زولينا».

استمر اليوم زاحفًا باتجاه نهايته.

على العشاء تحدث براين بمرارة عن حادثة إعدامٍ جماهيري قرأ عنها في صحيفة المساء.[1]

سأل تيد: «بابا، لماذا لا يعدمون سوى الملونين؟»

«لأنهم يكرهونهم يا ولدي».

«براين!» كان صوت آيرين التماسًا وتقريعًا في الآن نفسه.

قال تيد: «أوه، ولماذا يكرهونهم؟»

«لأنهم يخافون منهم».

«لكن ما الذي يجعلهم يخافون منهم؟»

«لأنهم...»

«براين!»

قال للولد بجدية ساخرة: «يبدو يا ولدي أن هذا موضوع لا نستطيع الخوض فيه في هذه اللحظة من دون أن نزعج سيدات عائلتنا. لكنا سنتحدث فيه لاحقًا عندما نكون بمفردنا».

هز تيد رأسه بطريقته الرزينة الساحرة. «أتفهم. لعلنا نستطيع أن نتحدث عنه غدًا في الطريق إلى المدرسة».

(1) تشمل المفردة التي استخدمتها الكاتبة، وهي lynching، جرائم القتل التي كان يرتكبها الغوغاء ضد السود من دون محاكمة، خصوصا الشنق. المترجم

«سيكون ذلك مناسبًا».

«براين!»

علق جونيور: «أمي، هذه المرة الثالثة التي تقولين فيها [براين] بتلك الطريقة».

أخبره أبوه: «ولكنها ليست الأخيرة يا جونيور، لا تخف».

بعدما صعد الولدان إلى طابقهما قالت آيرين بدمائة: «أتمنى حقًا يا براين ألا تتحدث عن الإعدام أمام تيد وجونيور. لا أجد لك أي عذر في طرح موضوع كهذا على العشاء. سيكون أمامهما وقت كاف ليتعلما عن أشياء فظيعة كهذه حينما يكبران».

«أنت مخطئة تمامًا! لو كان عليهما، مثلما أنت مصممة، العيشُ في هذه الدولة اللعينة فإن من الأفضل لهما أن يعرفا نوع الأشياء التي ستعترض طريقهما في أسرع وقت ممكن. كلما تعلما في وقت مبكر، كلما كانا أكثر استعدادًا».

«لا أتفق معك. أريد أن تكون طفولتهما سعيدة وخالية من معرفة هذه الأشياء قدر المستطاع».

جاءت إجابة براين التهكمية: «هدف جدير بالثناء. جدير بالثناء حقًا، باعتبار كل الأشياء. لكن هل يمكن أن يتحقق؟»

«بالطبع يمكن. لو تقوم أنت بما عليك القيام به».

«هراء! تعرفين كما أعرف يا آيرين أنها لا يمكن أن تكون كما تريدين. ما الذي أفادته محاولتنا أن نجعلهما بعيدين عن كلمة «زنجي» ودلالاتها؟ عرفا عنها، أليس كذلك؟ وكيف؟ لأن أحدهم دعا جونيور بالزنجي

القذر».

«ولهذا السبب عينِه عليك ألّا تحدثهما عن مسألة العِرق. لن أسمح بهذا».

حملق الاثنان في بعضهما.

«أؤكد لك يا آيرين أنه ينبغي عليهما أن يعرفا هذه الأشياء، ولعل المفيد أن يكون هذا الآن وليس لاحقًا».

أصرّت، وهي تقاوم دموع الحنق التي تهددها بالسقوط: «ليس من الضروري أن يعرفا!»

قال براين متذمرًا: «لا أستطيع أن أفهم كيف لأحد بالذكاء الذي تظنين أنك تتمتعين به ويبرهن على غبائه بهذه الطريقة!» رمقها بنظرة حائرة ومزعجة.

صاحت: «غباء! غباءٌ أن أريد لولديّ السعادة؟» كانت شفتاها ترتعشان.

«على حساب استعدادهما الملائم للحياة وسعادتهما المستقبلية، نعم. وسأشعر بأني لم أؤد واجبي تجاههما إن لم أزودهما بشيء من المعرفة عما يحدث أمامهما. هذا أقل ما يمكن أن أقوم به. أردت لهما أن يبتعدا عن هذا المكان الجحيمي منذ سنوات. لم تدعيني. تنازلتُ عن الفكرة، لأنك اعترضت. لا تتوقعي مني أن أتنازل عن كل شيء».

تحت سياط كلماته التزمت الصمت. وقبل أن تجد أي إجابة قام وغادر الغرفة.

جالسة لوحدها هناك في غرفة الطعام المهجورة، ضاغطة من دون وعيٍ

اليدين القابعتين في حجرها، ضامة إياهما إلى بعضهما، استولت عليها نوبةُ ارتجاف. لأنه بالنسبة لها كان هناك شيءٌ منذر بالشؤم في الموقف الذي كانت فيه للتو مع زوجها. عاد رَجْعُ كلماته الأخيرة: «لا تتوقعي مني أن أتنازل عن كل شيء» مرارًا وتكرارًا. ماذا تعني؟ ماذا يمكن أن تعني؟ كلير كندري؟

لا شك أن الخوف والشك قد أصاباها بالهوس. لا ينبغي أن ترهق نفسها. بل لا يجب! أين ذهب ضبط النفس والحدس المشترك اللذين طالما تفاخرت بهما؟ الآن وقتهما أكثر من أي وقتٍ مضى.

كلير ستصل عما قريب. يجب أن تستعجل وإلا فإنها ستتأخر مرة أخرى وسينتظرها هذان الاثنان في الأسفل معًا، كما فعلا مراتٍ كثيرة منذ أول مرة، والتي بدا الآن وكأنها صارت قبل دهر. هل كانت أكتوبر الماضي حقًا؟ ما بالها تشعر بنفسها كبرت سنينَ، وليس شهورًا.

قامت بحزنٍ من كرسيها وذهبت إلى الأعلى لتتدبر أمر اللبس للخروج في وقت سيكون لها من الأفضل بكثير أن تبقى في المنزل. أثناء العملية تساءلت، للمرة المئة، لماذا لم تخبر براين عن التقائهما هي وفيليس ببيلو يوم أمس، وللمرة المئة صرفت نفسها عن الاعتراف بالسبب الحقيقي للاحتفاظ بالمعلومة.

عندما وصلت كلير، مشعةً في ثوب أحمر براق، لم تكن آيرين قد انتهت بعدُ من ارتداء ملابسها. لكن ابتسامتها كادت تتلعثم حين حيّتها قائلة: «توقيتي دائمًا ما يكون توقيتَ أناس ملونين، أليس كذلك؟ لم نتوقع بأنك ستقدرين على المجيء. ستكون فيليس مسرورة. تبدين جميلة».

قبّلت كلير كتفها العاري، متظاهرة بأنها لم تلاحظ انكماشةً خفيفة.

«حتى أنا نفسي لم تكن لدي فكرة إطلاقًا بأني سأقدر على المجيء، لكن جاك اضطر بشكل فجائي إلى الذهاب إلى فيلادلفيا. ولذلك أنا هنا».

نظرت آيرين إلى الأعلى وسيلٌ من الكلمات يقف عند شفتيها. «فيلادلفيا. ليس بعيدًا، أليس كذلك؟ كلير، أنا..؟»

توقفت، إحدى يديها متشبثة بطرف كرسيها الخشبي، والأخرى مستندة إلى التسريحة وهي مقبوضة. لماذا لا تكمل وتخبر كلير عن لقائها ببيلو؟ لماذا لا تستطيع؟

غير أن كلير لم تتنبه إلى الجملة المبتورة. ضحكت وقالت بظرف: «فيلادلفيا بعيدة بما يكفي بالنسبة لي. أي مكان، بعيدًا عني، بعيدٌ بما يكفي. لا أتشرط».

مررت آيرين فوق عينيها يدًا لتخفي الوجهَ المتهم في المرآة أمامها. وفي زاوية من زوايا ذهنها تساءلت منذ متى كانت تبدو هكذا، شاحبة وذاوية و.. نعم، مرعوبة. أم كان خيالاً فحسب؟

سألت: «كلير، هل فكرتِ قط بجدية ماذا سيعني لو اكتُشف أمرك؟»

«نعم».

«أوه، فكرتِ! وماذا ستفعلين في تلك الحالة؟»

«نعم». وبقولها نعم، ابتسمت كلير كندري بصورة خاطفة، ابتسامةً ظهرت واختفت مثل ومضة، دون أن تنال من وقار وجهها.

تلك الابتسامة وذلك التصميم الهادئ الذي نطقت به الكلمة المفردة «نعم» غمرا آيرين بفزع بدائي يشلّ. خدرت يداها، وتجمدت قدماها، وغدا لقلبها وزنٌ حجري. حتى لسانها أضحى مثل شيء ميت ثقيل.

كانت هناك فراغات طويلة بين الكلمات حين سألت: «وماذا ستفعلين؟»

بدت كلير، التي غاصت في كرسي عميق، وعيناها موغلتان في البعد، مستغرقة في تأمل مستغلق الفهم. بالنسبة لآيرين، الجالسة مستقيمةً بترقب، مضى وقتًا بلا نهاية قبل أن تجذب كلير نفسها من جديد إلى الحاضر لتقول برباطة جأش: «سأقوم بما أريد القيام به أكثر من شيء الآن. سآتي للعيش هنا. في هارلم أعني. حينها سأكون قادرة على فعل ما أشاء، عندما أشاء».

مالت آيرين بجذعها إلى الأمام، شاعرة بالبرود والتوتر. «وماذا عن مارجري؟» كان صوتها بمثابة همسة متكلفة.

أعادت كلير: «مارجري؟» وقد دعت عينيها تمسحان وجه آيرين المهموم. «لا شيء يا رين. إن لم يكن من أجلها فسأفعله على أية حال. هي كل ما يعيقني. لكن لو اكتشف جاك، لو انهار زواجُنا، فسيحررني هذا. أليس كذلك؟»

بدت نبرتها اللطيفة اللامبالية، مظهرُ الصراحة البريئة الذي يعلوها، زائفة لمستمعتها. سيطرت على آيرين قناعةٌ بأن الكلمات قُصد منها أن تكون تهديدًا. تذكرت أن كلير كندري تبدو دائمًا على معرفة بما يفكر به الناس. تدريجيًا غدت شفتاها المزمومتان عنيدتين وحازمتين. حسنًا، لن تعرف هذه المرة.

قالت: «انزلي إلى الأسفل وتحدثي إلى براين. تجدينه يستشيط غضبًا».

على رغم أنها قررت أن كلير لن تصل إلى أفكارها ومخاوفها، طفرت الكلمات، على غفلة منها، إلى شفتيها. كما لو أنها أتت من طبقةٍ من القسوةِ خارجيةٍ لا علاقة لها بقلبها المعذّب. كما أدركت آيرين أن

الكلمات كانت مناسبة تمامًا لغرضها.

لأنها رأت لمّا قامت كلير وخرجت أن الترتيب كان بنفس إتقانِ خطتها الأولى أن تبقي كلير تنتظر هناك ريثما تلبس، بل أكثر إتقانًا. كانت فقط تريد أن تؤخرها وتضايقها. وماذا يهم لو أن هذين الإثنين قضيا ساعة واحدة، أكثر أو أقل، بمفردهما، ساعة أو أكثر، بما أنه الآن حدث بينهما كل شيء؟

آه! المرة الأولى التي تسمح فيها لنفسها بالاعتراف لنفسها أن كل شيء قد حصل، لم تجبر نفسها على الإيمان، على الأمل، بأنه لا شيء نهائيًا ومتعذرَ التغيير قد تحقق! حسنًا، لقد حصل. علمت به، وعرفت أنها علمت به.

دهشتْ لأنها بتفكيرها في تلك الفكرة، بتسليمها بالحقيقة، لم تعد تشعر بالألم، لم تعد تهتم، أكثر مما كانت تفعل إبّان محاولاتها السابقة المسعورة للهرب منها. بدا لها جائزًا غياب هذا الألم الحاد الذي لا يطاق، كما لو أنها حُرِمت نوعًا من السلوى الرائعة عن المعاناة ما كانت لتحصل عليها لولا الاعتراف الكامل.

ألأنّها احتملت كل ما تستطيع أن تحتمله امرأة من الإهانة والخوف الموجعين؟ أم لأنها كانت تفتقر إلى القدرة على ذروة المعاناة؟ «لا، لا!» رفضت بقسوة. «أنا إنسانة مثل أي إنسان غيري. ليس إلا بسبب أني متعبة جدًا، منهكة جدًا، لدرجة أنه لم يعد بوسعي أن أشعر». لكنها لم تجزم بذلك حقًا.

الأمان. هل كان مجرد كلمة؟ إن لم يكن كذلك، فهل لا تعرف أنه ليس ممكنَ الحصول إلا بالتضحية بأشياء أخرى، بالسعادة، بالحب، بنشوة عاصفة لم تعرفها قط؟ وهل الإفراط في السعي من أجل الأمان

والاستقرار، الإفراط في الإيمان بهما، شيء لا يتناسب وهذه الأشياء الأخرى؟

لم تعرف آيرين، لم تستطع الجزم، على رغم أنها جلست وقتًا طويلاً تتساءل وتحاول الفهم. مع ذلك، وعلى رغم تنقيبها وشعورها بالإحباط، كانت على وعي طوال تلك المدة بأن الأمان بالنسبة لها أهم شيء وأكثر ما ترغبه في الحياة. ليست مستعدة لاستبداله من أجلها كل تلك الأشياء، ولا من أجل أي منها. أرادت أن تكون مطمئنة البال فحسب. فقط من أجل أن تكون قادرةً، من دون تدخل أحد، على توجيه حياة ولديها وزوجها باتجاه الأصلح والأنفع لهم.

والآن بما أنها أراحت نفسها مما بدا أنه معرفةٍ آثمة، بما أنها اعترفت بشيء طالما عرفته بحاسة سادسة، قد تعاود من جديدٍ مخططاتِها. قد تفكر من جديد في طرقٍ للإبقاء على براين إلى جانبها، وفي نيويورك. لأنها لن تذهب إلى البرازيل! هي تنتمي لهذه الأرض ذات الأبراج المرتفعة. هي أمريكية. نشأت من هذه التربة، ولن تقتلع منها. ولا بسبب كلير كندري حتى، أو مئة كلير كندري.

براين أيضًا ينتمي لهذه الأرض. هي والولدان شغله ومسؤوليته.

غريب أنها لم تستطع أن تكون متأكدة الآن من أنها عرفت الحب قط. ولا حتى تجاه براين. كان زوجها ووالد ابنيها. لكن هل كان أيّ شيء أكثر من ذلك؟ هل أرادت قط أكثر من ذلك أو حاولت الحصول عليه؟ في تلك الساعة لم يخطر ببالها شيء.

مع ذلك، تريد أن تبقيه. استدقت شفتاها المصبوغتين حديثًا حتى باتتا خطًا دقيقًا مستقيمًا. صحيح، تخلت عن محاولاتها في الإيمان بأنه وكلير قد أحبا بعضهما ومع ذلك لم يحبا، لكنها ما تزال ترغب في التمسك

بالقشرة الخارجية لزواجها، أن تحتفظ بثبات حياتها ويقينها. وببلوغها تخومَ الواقع الكريه، لم تنكص طبيعتُها صعبةُ الإرضاء أو تنحسر. أن تشارك براين خير، خير أكثر بكثير، من أن تفقده كليًا. أوه، بوسعها الآن أن تغلق عينيها إما احتاجت. بوسعها أن تحتمل الأمر. بوسعها أن تحتمل أي شيء. ها هو مارس في الطريق. مارس ومغادرة كلير.

باستطاعتها الآن أن تفهم بوضوح فظيع سبب ميل غريزتها نحو كتمان —بل محو— خبرِ مقابلتِها بيلو. لو حققت كلير الحرية التي تنشد، قد يحدث أي شيء.

توقفت في منتصف ارتدائها، وقد رأت بمنتهى الوضوح تلك الحقيقة المعتمة التي شعرت بها من أول مساء في أكتوبر تجاه كلير كندري والتي حذرتها كلير نفسها مرة منها... أنها حازت الأشياء التي أرادتها لأنها استوفت أهم شرط للحيازة، ألا وهو التضحية. لو أرادت كليرُ براين فإنها لن تحجم بسبب نقص المال أو المكان. فكما قالت، لم يكن يمنعها من الرمي بكل شيء وراء ظهرها سوى مارجري. ولو خرجت الأمور عن سيطرتها، حتى وإن هُدّدت فقط، أو شكّت بأن شيئا كهذا على وشك الوقوع، حينها قد يحدث أي شيء. أي شيء.

لا! مهما كلف الأمر، لم يكن لكلير أن تعلم عن تلك المقابلة مع بيلو. ولا حتى براين. لن يفضي هذا إلا إلى إضعاف قوتها في الحفاظ عليه.

لن يعرفا منها أن بيلو كان في طريقه إلى الشك بحقيقة زوجته. وستفعل أي شيء، وستجازف بأي شيء، من أجل أن تمنعه من اكتشاف الحقيقة. يا للحظ الذي جعلها تطيع غريزتها وتهمل الاعتراف ببيلو!

«هل صعدتِ قطّ إلى الطابق السادس يا كلير؟» سأل براين إذ أوقف السيارة وخرج منها ليفتح لهما الباب.

«طبعا.. نعم! نحن نسكن في الطابق السابع عشر».

«أقصد هل صعدتِ قط بفضل قوة الزنوج؟»

ضحكت كلير. «هذا جيد! اسأل رين. أبي كان يعمل بوابًا، في الأيام الخوالي الجميلة قبل أن يكون لكل شقةٍ آيلةٍ للسقوط مصعدُها. لكنك لا يمكن أن تقصد أن علينا أن نصعد الدرج إلى أعلى؟ ليس هنا!»

أخبرتها آيرين: «بل هنا. وفيليس تسكن في أعلى طابق».

«لماذا بحق الله؟»

«أخالها تزعم أن هذا يثبّط عزيمة الزائر الثقيل».

«وربما تكون على حق. على رغم أنه شاقٌّ عليها نفسها».

قال براين: «صحيح، إلى درجة ما. لكنها تقول إنها تفضل الموت على السأم».

«أوه، حديقة! ويا لجمالها مع هذا الثلج الرابض!»

«أليست جميلة؟ لكن تقدمي إلى الممشى بتلك الحذاء الضيقة السخيفة. وأنت أيضا يا آيرين».

مشت آيرين إلى جوارهما على الممشى الإسمنتي الممسوح الذي قسّم بياض حديقة الفناء. شعرت بشيء ما في الهواء، شيء كان بين هذين الإثنين وسيكون من جديد. كان مثل شيء حيّ يضغط عليها. وبلمحة سريعة وعابرة رأت كلير متشبثة بذراع براين الأخرى. كانت ترفع

إليه بصرها بتلك النظرة المثيرة التي تملكها، وكانت عيناه مثبتتين على وجهها فيما بدا لآيرين تعبيرًا عن لهفة تواقة.

أخبرتهما في صوت يقترب من صوتها العادي: «أظن أن هذا المدخل».

قال براين لكلير: «حاذري أن تقعي من حافة الدّرَج قبل الطابق الرابع. فليس كل أحدٍ يقبل الدرجُ أن ينقله أبعد من هذا الطابق».

زجرته آيرين: «لا تكن أحمق!»

بدأت الحفلة بحبور.

كان ديڤ فريلاند في أفضل حالاته، متألقًا، وشفافًا، ورائعًا. فيليس أيضًا كانت مدهشة وليست ساخرة كعادتها، لأنها أعجبت بضيوفها الذين يقاربون اثني عشر فردًا رقّطوا غرفة المعيشة الطويلة وغير المرتبة. كان براين ظريفًا، وهذا ما لاحظته آيرين، على رغم أن تعليقاته كانت بطريقة ما شائكة أكثر مما هو مألوف حتى بالنسبة له. وكان هناك رالف هازلتن، مُلقيًا في بِركة الكلام أشياءَ تافهة وبراقة كان الآخرون، بما فيهم كلير، يلتقطونها ثم يقذفون بها مرة أخرى إلى البِركة بزخرف جديد.

وحدها آيرينُ لم تكن مبتهجة. كان صامتة في الغالب، مبتسمةً بين الفينة والأخرى، عسى أن تبدو مستمتعة.

سأل أحدهم: «ما الخطبُ يا آيرين؟ أنَذَرتِ نذرًا بألا تضحكي، أو شيء من هذا القبيل؟ تبدين في رصانة قاضٍ».

«لا. الأمر ببساطة أنكم جميعًا في غاية الذكاء لدرجةٍ تُخرسني وتغمرني بالذهول».

علق ديف فريلاند: «لا غرو، فأنتِ على وشك البكاء. لمْ تتناولي شرابًا. ماذا أقدّم لك؟»

«شكرا. إن كان لا بد أن آخذ شيئًا، فليكن كأسا من بيرة الزنجبيل وثلاث قطرات من ويسكي سكوتش. الويسكي أولا من فضلك، ثم الثلج، ثم بيرة الزنجبيل».

هزأت فيليس: «اللعنة! لا تحاول خلطه بنفسك يا عزيزي ديف. دع كبيرَ الخدم يفعل».

«نعم. والخادم أيضا». ضحكت آيرين قليلاً ثم قالت: «يبدو المكان دافئًا هنا بشكل لا يحتمل. هل تمانعين لو فتحتُ النافذة؟» عندها شرّعت واحدة من النوافذ البابية الطويلة التي طالما افتخرت بها عائلة فريلاند.

كان الثلج قد توقف عن النزول منذ ساعتين أو ثلاث. وكان القمر قد بزغ للتو، وفي البُعد من وراء المباني الطويلة كانت بضعُ نجمات تزحف. أنهتْ آيرين سيجارتها ورمت بها إلى الخارج، وهي تراقب الشرارة الصغيرة تسقط بطيئًا باتجاه الأرضية البيضاء في الأسفل.

في الغرفة أدار أحدهم الفونوغراف. أم هل كان الراديو؟ لم تعرف أيهما تكرهُ أكثر. ولم يكن أحد يستمع إلى دويّه. لم يتوقف الحديث، لم يتوقف الضحك دقيقة واحدة. لماذا عليهم أن يحدثوا ضجيجًا أكثر؟

جاء ديف بشرابها. أخبرها: «لا ينبغي لك أن تقفي هناك هكذا. سيصيبك البرد. تعالي هنا وتحدثي إليّ أو اصغي إلى ثرثرتي». وممسكًا بذراعها، قادها بامتداد الغرفة. كانا قد اتخذا مقعديهما للتو حين رن جرس الباب فنادته فيليس أن يذهب ليجيب عليه.

في اللحظة التالية سمعت آيرين صوته في الرواق، مهذبًا بلا مبالاة:

«زوجتك؟ آسف. أظن أنك مخطئ. ربما بجوارنا...»

ثم كان زئيرُ صوت جون بيلو فوق كل الأصوات الأخرى في الغرفة: «أنا لست مخطئًا! لقد ذهبتُ إلى منزل عائلة ردفيلد وأعلم أنها معهما. خيرٌ لك أن تبتعد عن طريقي وتجنب نفسك المتاعب في النهاية».

«ما الأمر؟» جرت فيليس إلى الباب.

وكذلك فعل براين. سمعته آيرين يقول: «أنا ردفيلد. ما شأنك أنت بحق الجحيم؟»

لكن بيلو لم يتنبه إليه. شق طريقه من بينهم جميعًا إلى الغرفة ومشى باتجاه كلير. لوى الجميع أعناقهم إليها حين نهضت من كرسيها متراجعة إلى الوراء قليلاً وهو يتقدم.

«أنت زنجية إذن، زنجية لعينة قذرة!» كان صوتُه زمجرةً وأنينًا، تعبيرًا عن الجنون وعن الألم.

اختلط كل شيء. تقدم الرجال أمامًا. قفزت فيليس بينهم وبين بيلو. وقالت بسرعة: «حذار. أنت الرجل الأبيض الوحيد هنا». وكان البرود الشديد في صوتها وكلماتها تهديدًا.

وقفت كلير عند النافذة، برباطة جأش كما لو أن الجميع لم يكونوا يحدقون إليها في فضول وذهول، كما لو أن كيانَ حياتها بأكمله لم يكن مطروحًا في شظايا بين يديها. بدت غيرَ مدركة لأي خطر أو غير مكترثة. بل إن ابتسامةً ضئيلة ارتسمت على شفتيها الحمراوين الممتلئتين وفي عينيها المضيئتين.

كانت تلك الابتسامة التي أغاظت آيرين. عبرت الغرفة وقد اصطبغ

ذعرُها بشراسة، ثم وضعت يدا على ذراع كلير العارية. سيطرت عليها فكرةٌ واحدة. لن تقدر على أن يترك بيلو كلير كندري. لن تقدر على أن تكون كلير حرة.

أمامهما وقف جون بيلو، وقد ألجمه الآن ألمُه وغضبُه. وفي الوراءِ الحشدُ الصغير للباقين، وقد خطا براين خارج الحشد.

ما حصل بعد ذلك، لم تسمح آيرين ردفيلد لنفسها أن تتذكره فيما بعد. ليس بوضوح أبدًا.

في لحظة كانت كلير هناك، شيئًا مضيئًا وحيويًا، مثل جذوةٍ من الياقوت والذهب. في اللحظة التالية لم تكن موجودة.

كانت هناك شهقةُ ذعر، وفوقها صوتٌ ليس بشريًا بالكامل، كما وحش يحتضر. «زنج! يا إلهي! زنج!»

بدأ اندفاعٌ مسعورٌ للأقدام نزولاً على طيات الدرج. صفقٌ لأبواب بعيدة. أصوات.

تخلفت آيرين عن النزول. جلست وظلت هادئة وساكنة، محدقة في لوحة يابانية سخيفة على جدار الغرفة المقابل.

ذهب! الوجه الأبيض الناعم، الشعر البراق، الفم القرمزي المربك، العينان الحالمتان، الابتسامة المعانقة، كامل السحر المعذِّب الذي كانَتْه كلير كندري. الجمال الذي شق حياة آيرين الوادعة. ذهب! الجسارة الهازئة، كياسة ادعائها، الأجراس الرنانة في ضحكتها.

لم تكن آيرين آسفة. كانت مندهشة، مرتابة تقريبًا.

ماذا سيظن الآخرون؟ أن كلير سقطت؟ أنها اتكأت إلى الوراء عمدًا؟

بكل تأكيد إما ظنٌّ أو الآخر. ليس...لكنها، كما حذرت نفسها، يجب ألا تفكر في ذلك. كانت منهكة جدًا، ومصدومة جدًا. وكلاهما في الواقع صحيح. كانت متعبة تمامًا، وكانت مذهولة بعنف. لكن أفكارها استمرت في التدفق. لو تستطيع فقط أن تكون حرة من النشاط الذهني مثلما كانت حرة من النشاط البدني، لو تستطيع فقط أن ترمي من ذاكرتها منظرَ يدها على ذراع كلير!

«كانت حادثةً، حادثة فظيعة». تمتمت بشراسة.

صعد الناس الدرج. وكانت خطواتهم وحديثهم تدنو عبر الباب الذي ما زال مفتوحًا أكثر فأكثر.

بسرعة نهضت واقفة ودلفت بلا أدنى صوت إلى غرفة النوم ثم أغلقت الباب بخفةٍ وراءها.

تسارعت أفكارها. هل كان ينبغي عليها أن تبقى؟ هل كان يجدر بها أن تعود إليهم هناك؟ لكن ستكون هناك أسئلة. لم تفكر فيها، فيما سيتبع، في هذا. لم تفكر في شيء في لحظة التصرف المفاجئة تلك.

كان الجو باردًا. سرت قشعريراتٌ ثلجية على امتداد عمودها الفقري، وقفاها، وكتفيها.

في الغرفة التي في الخارج ارتفعت أصوات. صوت ديف فريلاند وأصواتٌ آخرين لم تميزهم.

هل ينبغي أن ترتدي معطفها؟ فيليس أسرعت إلى الأسفل دون أي دثار. وكذلك فعل الآخرون كلهم. وكذلك فعل براين. براين! يجب ألا يصيبه البرد. أخذت معطفه وتركت معطفها. عند الباب توقفت لحظة، متنصتة بوجل. لم تسمع شيئًا. لا أصوات. لا وقع أقدام. ورويدًا

رويدًا فتحت الباب. كانت الغرفة خالية. خرجت.

في الردهة في الأسفل، سمعت بخفوتٍ صوتَ أقدامٍ تنزل الدرج، صوتَ باب يفتح ثم يغلق، وأصواتِ ناس بعيدين.

نزلت إلى الأسفل، الأسفل، الأسفل، ومعطف براين الضخم متشبثٌ بذراعها المرتعشة ومنسحبٌ قليلاً على كل درجة خلفها.

ماذا عساها أن تقول لهم حين انتهت أخيرًا من نزول ذلك الدرج السرمدي؟ كان ينبغي عليها أن تندفع إلى الخارج عندما فعلوا. أي سبب تستطيع أن تقدمه عن توانيها خلفهم؟ إنها لم تعرف حتى لماذا فعلت ذلك. وماذا ستُسأل أيضا؟ فهنالك يدها الممدودة في اتجاه كلير. ماذا عنها؟

وفي غمرة تعجباتها وتساؤلاتها ظهرت فكرة مخيفة جدًا، فظيعة جدًا، لدرجة أنها اضطرت إلى التشبث بالدرابزين كيما تحمي نفسها من التدحرج إلى أسفل. جسدها المرتجف نقعَ في عَرَقٍ بارد. ضاق تنفسها وهو يستحيل شهقات حادة ومؤلمة.

ماذا لو لم تمتْ كلير؟

شعرت بالغثيان من الخوف بنفس القدر الذي شعرت به بالغثيان من فكرة الجسد البهيّ مشوَّها.

كيف تمكنت من إكمال رحلة الدرج من دون أن يغمى عليها، هذا ما لم تعرفه أبدًا. لكنها بلغت أخيرًا الطابق الأرضي. في الأسفل التحقت بالباقين، وقد أحاطت بها دائرة صغيرة من الغرباء. كانوا جميعا يتحدثون همسًا، أو بالنبرات الهلعة المخفوضة بحذر والملائمة لمشهد الكارثة. في الوهلة الأولى أرادت أن تلتف وتنكص من الطريق الذي جاءت منه.

ثم غشاها يأس هادئ. ضمّت نفسها، إنْ بدنيًا وإنْ ذهنيًا.

أعلن ديف فريلاند: «ها هي آيرين الآن» ثم أخبرها أنهم، إذ افتقدوها للتو، استنتجوا أنها أغمي عليها أو شيء من هذا القبيل، وأنهم كانوا في طريقهم إلى التأكد من ذلك. رأت أن فيليس كانت تمسك بذراعه وقد ذهبت عنها كل اللامبالاة المتغطرسة واستحال البُني الذهبي في وجهها الوسيم لونًا بنفسجيًا غريبًا.

لم تُشِرْ آيرين إطلاقًا إلى أنها سمعت فريلاند، بل ذهبت رأسًا إلى براين. بدا وجهه شائخًا ومقلوبًا، وكانت شفتاه أرجوانيتين ترتجفان. داهمها شوقٌ عظيم لأن تواسيه، لأن تجذب عنه معاناتِه ورعبَه. غير أنها عدمت الحيلة، وقد فقدت السيطرة بالكليّة على عقله وجَنانه.

تلعثمت: «هل ما.. هل ما...؟»

كانت فيليس التي أجابت: «على الفور، كما نظن».

قاومت آيرين تنهيدةَ الامتنان التي ارتفعت في حلقها. تحولت إذ خُنقت إلى الأسفل إلى نشيج كأنه نشيج طفل جريح. وضع أحدهم يدا على كتفها في لفتة مهدئة. دثّرها براين بمعطفه. بدأت في البكاء على نحو معذب، وكامل جسدها يهتز في نوبات نشيج متشنج. قام بمحاولة طفيفة تعوزها الحماسة لتهدئتها.

«هوني عليك، آيرين. لا تبكي. سترهقين نفسك. لقد ما...» انقطع صوته بغتة.

كما لو من مسافة بعيدة سمعت صوتَ رالف هازلتن يقول: «كنت أنظر إليها مباشرة. تعثرت ثم هوت قبل أن يكون بوسعك أن تقول «جاك روبنسن». أحسب أنه أغمي عليها. يا إلهي، كم كان سريعًا! أسرع شيء

رأيته في حياتي».

«مستحيل، أقول لكم! مستحيل بكل ما تعني الكلمة!»

كان براين من تحدث بذلك الصوت المهتاج الأجش الذي لم تسمعه آيرين يومًا. تزلزلت ركبتاها من تحتها.

قال ديف فريلاند: «دقيقة واحدة يا براين. كانت آيرين هناك إلى جانبها. دعنا نسمع ماذا عساها أن تقول».

مرت بها لحظة خوف جبان قاسية. فكرت، بل دعت: «أرجوك يا إلهي، ساعدني».

اتجه إليها بالحديث رجلٌ غريب، مسؤول رسمي: «متأكدة أنها سقطت؟ أم أن زوجها دفعها أو أي شيء من ذلك القبيل، كما يظن الدكتور ردفيلد؟»

ولأول مرة أدركت أن بيلو لم يكن في المجموعة الصغيرة المرتعشة في الرواق الصغير. ماذا يعني ذلك؟ لمّا أخذت تقلّب الأمر في رأسها المخدر خضّتها رجفةٌ أخرى قبيحة. ليس ذاك! أوه، ليس ذاك!

«لا، لا! أنا واثقة تمامًا أنه لم يفعل. لقد كنتُ هناك أيضًا. بنفس قُربه منها. إنما سقطت، وقبل أن يكون بوسع أحد إدراكها. أنا...»

ركبتاها المتزلزلتان انهارتا من تحتها. أنّت ثم غاصت ثم أنّت من جديد. ومن خلال الثقل العظيم الذي غمرها فأغرقها كانت تعي بخفوتٍ أيدٍ قوية تنهض بها. ثم غاب كل شيء في الظلام.

بعد قرون، سمعت الرجل الغريب يقول: «أميل إلى الاعتقاد أنه موت بسبب حادث. دعونا نصعد ثم نلقي نظرة ثانية على تلك النافذة».

زنج

هل عرفت تلك المرأة أن أمام عينيها مباشرة في سطح فندق الدرايتون تجلس زنجية؟ غريب! مستحيل! إنّ البيض على درجة من الغباء تجاه هذه الأشياء، لدرجة أنهم طالما أكدوا على أنهم قادرون على تمييز الزنوج، وبأكثر الطرق سخفًا، من خلال أظافرهم، وراحات كفوفهم، وأشكال آذانهم، وأسنانهم، وغيرها من الأشياء التافهة. لطالما ظنّوها إيطالية، أو إسبانية، أو مكسيكية، أو غجرية. لم يشكّوا أبدا، ولو من بعيد، عندما تكون بمفردها، أنها ربما تكون زنجية. لا، لا يمكن أن تكون المرأة التي تجلس قبالتها الآن قد عرفت.

على أية حال، شعرت آيرين في المقابل بمشاعر الغضب والازدراء والخوف تتسلل إليها. ليس لأنها خجلت من كونها زنجية، أو من التصريح بهذا على الأقل. بل إن ما أثار انزعاجها هو فكرة طردها من أي مكان، حتى بالطريقة المهذبة اللبقة التي يمكن أن يلجأ إليها فندق الدرايتون.

ISBN 978-9938-880-46-5
9 789938 880465
Cover Painting by
Zoya Taylor

20.10.2018
Matheamtician

@darathar
#زنج